هل كان لابد من هذا العداء ؟!!

دعوة إنسانية لإعادة دراسة تاريخ جغرافية العالم القديم كوحدة تاريخية واحدة



تأليف
محمد بن عبد الرحمن آل شويه

الطبعة الأولى
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

هل كان لابد من هذا العداء؟!!

دعوة أنسانية لإعادة دراسة تاريخ جغرافية العالم القديم كوحدة تاريخية واحدة

تـأليـف

محمـد بن عبـدالرحمـن آل شـويـة

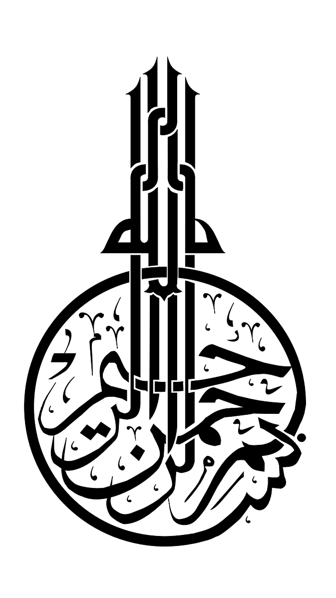
الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

(ح) **محمد بن عبدالرحمن آل شوية ، ١٤٣٢هـ**

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
آل شوية ، محمد بن عبدالرحمن
هل كان لابد من هذا العداء؟!! محمد بن عبدالرحمن
آل شوية - الرياض ١٤٣٢هـ
١٠٨ص ١٥×٢١سم
ردمك : ٨-٧٩٣٠-٠٠-٦٠٣-٩٧٨
١ - السياسة الدولية ٢- الولايات المتحدة - العلاقات الخارجية
٣ - الولايات المتحدة - السياسة العسكرية أ. العنوان
ديوي ٣٢٧,٧٣ ١٤٣٢/٦٩٨٤

رقم الإيداع : ١٤٣٢/٦٩٨٤
ردمـــــك : ٨-٧٩٣٠-٠٠-٦٠٣-٩٧٨


بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

الفـهــرس

المقدمة

الحمد للّه رب العالمين والصلاة والسلام على رسول اللّه إلي العالمين .

وبعد فإنني من خلل اطلاعاتي المتواضعة على التاريخ في العموم وبخاصة تاريخ المسلمين مع الأمم الأخرى التي حدث بينها وبين المسلمين تدافع حضاري وحروب وفتوح ، هالني حجم العداء المتبادل بين المسلمين وبين الأوروبيين ، فلم تحدث الحروب بين المسلمين والأوروبيين فقط بل حصلت بين المسلمين وأمم أخرى من غير الأوروبيين فتح المسلمون بلدانهم كالهنود والصينيين ... الخ ، ولم يكن هناك ذاك العداء العميق والمستمر المغذى بشكل دائم حيث لايكاد يخبو لهيبه حتى يُضرم مرة أخرى فيشتعل بأشد مما كان ، كما في تاريخ المسلمين والأوروبيين مما يدفع إلى سؤال غاية في الأهمية وهو : لماذا هذا العداء ؟ خاصة أن العرب المسلمين ليسوا الأمة الوحيدة التي خرجت من موطنها وفتحت البلدان وأسقطت الإمبراطوريات ، كذلك الأوروبيون ليسوا هم الأمم الوحيدة التي فعلت الشيء نفسه ، بل كل الأمم المؤثرة في التاريخ والفاتحة فعلت الشيء نفسه ، ولم أجد مثل هذا العداء المستحكم بين المسلمين والأوروبيين!! .

وعليه فإنني عدت إلى التاريخ لعلي أعثر على السبب ، وبجهدي المتواضع حاولت محاولتي الخاصة لفهم الموضوع ، وهي ليست دراسة تاريخية وذلك لصعوبة البحث ولأنني لم أرد ذلك ، لهذا أترك ذلك لمن هم أقدر عليه مني ، ومع ذلك أحسب أنه يمكنني أن أدلي برأي حول الإجابة عن هذا السؤال في إطار النقاط التالية :

١ - دراسة التاريخ في دائرة أوسع وأشمل بحيث يشمل الميدان الأكبر الذي هو قارات العالم القديم (آسيا وإفريقيا وأوروبا) الذي جرت عليه أحداثه ، وذلك على اعتبار تاريخ هذا الميدان الكبير تاريخا واحدا بأوجه متعددة ، لأنه لاطرف يستطيع أن يدعي أن تاريخه سار عبر الزمان بمنأى عن تأثير أي من أبطال هذا المسرح ، فلم تعد تجدي دراسة هذا التاريخ بصورة مجتزئة في عصر يشاهد فيه القارئ هذا الميدان من الفضاء الخارجي بفضل التقنيات الحديثة .

٢ - يجب دراسة التاريخ على أنه ينقسم إلى قسمين : تاريخ قديم ينتهي بنهاية أو سقوط الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية الغربية ، وتاريخ حديث يبدأ أيضا بسقوط هاتين الإمبراطوريتين على يد القوتين الجديدتين المنسابتين من الشرق إلى الغرب على ضفتي البحر المتوسط وهما : القوة الإسلامية في جنوب المتوسط التي استطاعت القضاء على إمبراطورية الفرس وكذلك تحجيم الإمبراطورية البيزنطية ، والقوة الثانية في شمال البحر المتوسط وهي القبائل الجرمانية البربرية التي كان لها فرصة القضاء على الإمبراطورية الرومانية الغربية وذلك بسقوط عاصمتها (روما) في أيديهم ، مما أدى في النهاية إلى أن ورثت هاتان القوتان الجديدتان العالم القديم . وعليه يمكن القول أن العالم القديم انتهى خلال الفترة مابين سنة ٤٧٦م سنة (سقوط روما) وسنة ٦١٠م سنة (ظهور الإسلام) مما يعني في الوقت نفسه أن هذين التاريخين هما بداية التاريخ الحديث القائم والمستمر إلى يومنا .

٣ - تاريخ المنطقة ضخم وطويل يمتد لقرون ولايمكن دراسته في مثل هذا الكتاب ، لذلك عمدت إلى الاستدلال بأحداث وتواريخ كبرى وفاصلة لاتقبل الجدل ومتفق عليها ، كالسنة التي ظهر فيها الإسلام سنة ٦١٠م ومن قبيل سقوط روما سنة ٤٧٦م .. إلخ إذا إن الهدف ليس التأريخ لحقبة معينة بل هو محاولة متواضعة لفهم هذا العداء في صورة أوسع وأشمل في إطار تاريخ هذا الميدان الكبير ، دون إقصاء لتاريخ طرف لحساب الطرف الآخر ، واني آمل من دارسي التاريخ من طرفي هذه المعادلة العرب والمسلمين من جهة والأوروبيين وأمريكا من جهة ثانية وغيرهم من مؤرخي باقي أمم العالم ، دراسة تاريخ قارات العالم القديم كوحدة واحدة ضمن جغرافيا واحدة تشمل هذه القارات القديمة ، ذلك التاريخ الذي سوف يمتد إلى قارات العالم الأخرى الجديدة . ومع ذلك يمكن للمرء أن يتساءل : هل من الأفضل تحاشي الحديث عن الأخطاء والكوارث الإنسانية التي ارتكبت ، وتبادل عبارات المجاملات والمديح أم مناقشة الأحداث التاريخية بجدية وموضوعية؟.

الحقيقية أن وضع الأمور في نصابها والاعتراف بالأخطاء ودراستها في سياق تاريخ الميدان الكبير على امتداد تلك القارات الثلاث سيؤدي إلى استشراف الحقيقة التي سوف تساعد على التقارب والتفاهم والتعاون ، مما يعني تخفيف التوترات ومن ثم إشاعة الطمأنينة وبالتالي تبادل الثقة التي على إثرها تُنزع أشباح الخوف والريبة المتبادلة ، ففترات الهدوء والسلام بين المسلمين والأوروبيين

عبر تاريخهم الطويل أكثر من فترات التوتر ، ولو أن أوروبا كانت أكثر رشدا في العصور الوسطى وأعادت التفكير في قرار الحروب الصليبية لربما كانت الأحوال في المستقبل أفضل ، وكان التعاون اليوم على أسس أقوى ، وربما كان التحالف بينهما للعبور بالبشرية إلى آفاق حضارية أوسع مما هي عليه اليوم .



الفصل الأول

ماقبل ظهور العرب المسلمين والجرمان

المبحث الأول
التكوينات البشرية الكبرى

آمل أن يكون واضحاً لدى القارئ أني لا أكتب هنا بحثا تاريخيا ، إلا أنه لابد من استعراض التاريخ في أحداثه الكبرى الواضحة التي لاتحتاج للتقصي وتحري المصادر من مثل ماسوف أكتب عنه في هذا المبحث فأنا هنا أحاول أن استعرض حركة التاريخ وتكوّن الحضارات واتصال الشعوب بعضها ببعض حتى وصول العالم إلى الحضارة العالمية المنشودة التي ينخرط فيها عموم البشر جميعاً ، وعن كيفية هذا التفاعل الحضاري وما الحاصل بين هذه الأطياف البشرية الكبرى ؟ وماذا يجب أن نفعله للوصول للبناء الحضاري العالمي العام الذي في النهاية هو المآل الذي يجب أن تصل إليه الحضارة ، وما يمكن أن تصير إليه تلك الحضارة التي ستؤدي إلى توحد البشر وتقاربهم مرة أخرى على المصالح المشتركة والتعاون بدل التناحر والحروب ، حيث إن البشرية سوف تكتشف ولو بعد حين أن مصلحتها في العيش المشترك والتعاون والاعتراف المتبادل .

وهذا ليس خياراً مخمليا ولكن للضرورة الملحة ، حيث إنه سيصل بالبشرية إلى أنها من التقارب وتشابك المصالح ستجد أن لا فائدة من الحروب وقهر بعضها بعضا ، مما يؤدي إلى التعاون وإلى التعارف ودراسة الثقافات المختلفة وتبادل المعارف والخبرات ، ودراسة التاريخ بطريقة شاملة يكون ميدانه العالم بأكمله وذلك بصورة شاملة مترابطة مما ينتج عنه اتضاح وحدة التاريخ كوحدة البشر الذين يقبلون على

التعارف بين بعضهم بعضا بروح جديدة ملؤها الأمل والتفاهم ، يدعمها قول الله سبحانه وتعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ ﴾[1] . هذا التعارف الذي يتيح للناس عمارة الأرض بما يخدم البشرية على مايحب الله سبحانه ، وأن الله سبحانه وتعالى ناظر إلى عباده يرى ماذا يفعلون ، وهنا تكن عمارة الأرض الحقيقية امتثالاً لقوله تعالى : ﴿ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ ﴾[2] . هذه العمارة قائمة على تعاون أقطاب البشر الكبيرة ، التي يمكن أن تمثل دور الأحزاب المتنافسة في الدولة الأثينية الديمقراطية الحديثة وليست الأحزاب أو الطوائف أو الأجناس المتصارعة .

هذه الأقطاب المتمثلة في التكوينات البشرية الكبرى التي يمكن أن تكون عماد الحضارة البشرية العالمية الواحدة المتجهة إلى الخروج من أقطار السموات والأرض ، كما في التحدي الإلهي في هذه الآية الكريمة قال تعالى : ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴾[3]. وهذه الأقطاب كما يرى علماء الأنثروبولوجيا من خلال تقسيمهم للأجناس البشرية هي :

١ – الشعوب السامية . كالعرب ، الآراميين ، العبرانيين ، والفينيقيين .

٢ – الشعوب الآرية . كالفرس ، الرومان ، والجرمان .

---

(١) الحجرات الآية : ١٣ .

(٢) البقـــرة الآية : ٣٠ .

(٣) الرحمـــن الآية : ٣٣ .

٣ - الشعوب الصينية . كالصينيين ، واليابانيين ، والمغول .
٤ - الشعوب الإفريقية . التي تنتمي أولاد حام حسب تقسيم التوراة للأجناس البشرية [١] .

وسوف أحوال استعراض أحداثها التاريخية الكبرى على جغرافياتها المتناثرة على مسرحها الدولي الكبير آسيا وإفريقيا وأوروبا بتفاعلاتها الحضارية والاجتماعية والسياسية والدينية ، القائمة على العسكرية والعنف المتبادل الأمر الذي أدى إلى حضارة عالمية مشوهة متعددة الوجوه كانت تعمل ضد مصلحة الإنسانية ، إذ إن محرك هذه الحضارة هو القتل .

١ - الشعوب السامية :

وحيث إن البشرية تقوم على أقطاب مختلفة ، فإن لكل قطب أو مجموعة بشرية مساحة جغرافية تنتمي إليها وعليها تقيم حضارتها ، فالشعوب السامية اتخذت من وسط العالم مركزاً لها ، فهي في موقع وسط بين قارات العالم القديم آسيا وإفريقيا وأوروبا ، وهي ربما أسيوية من جزيرة العرب على ما يقال من غموض حول موطن الساميين الأصلي [٢] مما يبرر ظهور دولها وحضاراتها في هذا الموقع من العالم خاصة في غرب أسيا هذه المنطقة التي ظهرت فيها أولى محاولات الإنسان للكتابة ، وذلك في العراق الذي من أشهر دولة الآشوريون والسومريون أصحاب الكتابة الأولى ، وكذلك البابليون القانونيون الأوائل في العالم أصحاب (قانون حمو رابي) ، ولا ننسى

(١) دراسات في تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام . د . نعمان محمود جبران ، د . روضة سحيم حمد آل ثان . مؤسسة حمادة للخدمات الجامعية . اربد . الأردن . ص.٧٩ ، ٨٠ .
(٢) العرب قبل الإسلام . جرجي زيدان . دار مكتبة الحياة . بيروت . ص. ٤٥ .

مصر الفرعونية ذات الحضارة العريقة وغيرها من الدول والحضارات المتتالية والمستفيدة من التراكم الحضاري البشري الذي تطبعه كل أمة بطابعها مما كوّن في نهاية المطاف التكوين الأول للحضارة في هذه المنطقة التي ولدت عليها وترعرعت هذه الحضارة أو تلك .

حيث أخذت الحضارة تزدهر وتتطور وترتقي في سلم التقدم من دولة إلى دولة ومن أمة إلى أمة إلى أن وصل إلى آخر أمم هذا الجنس من البشر اليهود والعرب الذين يمثلون خلاصة هذه الشعوب وحضارتها ، والتي نرى أثر الرسالات السماوية واضحة فيها ، فهي أرض الرسالات السماوية وهي أرض الأنبياء والرسل ، وفيها خرجت الرسالات السماوي الكبرى اليهودية والمسيحية والإسلام الذي له الهيمنة الشاملة على هذه المنطقة وعلى حضارتها التي تتمثل في آخر صورة مشرفة لها ، في صورة ما عرف فيما بعد بالحضارة الإسلامية التي أنارت الدنيا لقرون طويلة ، إذ كانت هذه المنطقة تقود العالم في ظل الحضارة الإسلامية بروح من التعاون والتعددية ، فكان يعمل في خدمة الحضارة من كان يستطيع سواء كان مسلماً أو غير مسلم ، ولا أدل على ذلك من حركة نقل إرث الحضارات القديمة في الهند وبلاد فارس واليونان إلى اللغة العربية لغة العصر آنذاك ، حيث إن هذا النقل لن يتم بدون تعاون مّا بين الشعوب المنضوية تحت راية الإسلام (الدولة الإسلامية) ، سواء كان الفاتحون العرب المسلمون أو الأمم الأخرى التي خضعت بلدانهم للفتح الإسلامي الأول .

إذ إن الترجمة ستكون تعاونا بين المترجمين من كلا الجانبين على طرفي اللغتين ، المترجم منها إلى المترجم إليها (أي العربية) التي

أصبحت بدورها الوعاء والحامل لمشعل الحضارة الذي حفظ تراث البشرية قرون عديدة ، من هذا يمكن أن نخلص إلى أن أهم من يمكن أن يمثل هذا العنصر (السامي) في العصور الوسطى وما بعدها هم العرب المسلمون وحضارتهم الإسلامية الذين أصلهم سامي ، وبهذا يتضح القطب الأول من أقطاب البشرية الذي مع الأقطاب الأخرى يكون مكونا مهما في الحضارة العالمية .

٢ - الشعوب الآرية :

وهي الشعوب والأقوام التي استوطنت في الغالب شمال البحر المتوسط وكذلك جزره إلى جانب القارة الأوروبية ، حيث ظهرت على أيدي هؤلاء دول وحضارات كبيرة وصغيرة متوارثة بعضها بعضا ومن أشهرها اليونان والرومان وربما الفرس .

وهم عبارة عن هجرات قبلية متتالية من آسيا ، وربما أواسط آسيا مما يعني أنهم أيضاً شعوب أسيوية[١] ، وهي هجرات كبيرة أخذت مداها الزماني والمكاني وهي من القوة بمكان أن كل قبيلة تدفع بالأخرى في صراع مستديم بحكم التدافع أو الحروب ، وذلك بسبب التنافس أو الكوارث الطبيعية والأوبئة وكذلك المجاعات ، حيث إنهم قبائل بدوية رعوية تجيد الفروسية والقتال ، وهذه الهجرات قديمة قدم هذا الجنس أو هذا القطب ، وربما إن الشعوب اليونانية والفارسية ليست سوى من أولها بل ربما هناك أقدم من أولئك ، وعليه فربما تكون الهجرات الأخيرة الجرمانية وما يليها من الهجرات السلافية ثم

(١) تاريخ العالم الغربي . ل ج شيني . ترجمة : مجد الدين حفني ناصف . دار النهضة المصرية ، القاهرة . ص. ٤٧ .

التركية امتدادا لها بصورة أو بأخرى . آمل دراسة وتأمل ذلك من قبل المؤرخين في إطار مسرح قارات العالم القديم الثلاث ، حيث إن بعضها سنحت لها الفرصة بالظهور على المسرح الدولي أثناء تحول تاريخي أو تطور بشري أو تحول في طرق إنتاج الغذاء وتحول وسائل العيش مما أتاح هذه الفرصة لتلك الجماعة دون الأخرى ، وأدى إلى اندماج بعض الموجات البشرية الأخرى أو اندثارها ، ومن أعظم دول هذا القطب العظيم الإمبراطريتان الفارسية . والرومانية التي هي امتداد للحضارية اليونانية ، وقد استطاعت هاتان الإمبراطوريتان الكبيرتان وراثة الحضارات الكبرى في منطقة غرب آسيا وحوض البحر المتوسط ، حيث من الملاحظ أن هجرات هذا القطب المتعاقبة على مدى التاريخ تقصد في نهية المطاف المراكز الحضارية في العالم على مر الزمان ومناطق الحضارة غرب آسيا وحوض المتوسط أولها ، وهذه الهجرات ليست منتظمة ومتتالية بل إنها ربما تحدث في صورة طفرات ، فربما تكون دولتا الفرس والروم طفرتين كبيرتين في وقت مبكر من طفرات هذا القطب ، حيث إنني أجد أن مهجر كل هذه الهجرات أواسط آسيا من دولتي الفرس والروم إلى نهايات الهجرات التركية ، حيث كانت وجهة معظمها صوب الغرب عموماً وخصوصا أروبا ، إذ تمكنت في نهاية المطاف إحدى هذه الهجرات من القضاء على الدولة الرومانية الغربية في روما وتغيير تركيبة المنطقة السكانية وإلى الأبد ، وقد حصل هذا على يد أهم هذه الموجات البشرية في العصور الوسطى وهم الجرمان (البرابرة) الذين سوف يكون لهم الشأن الكبير في تاريخ العالم فيما بعد ، بعضهم يدفع بعضا حتى وصل أولهم إلى أيبيريا

وهم القوط الغربيون ، وبعضهم عبر إلى شمال إفريقيا وهم قبائل الوندال ، ليس لهم من مقومات الحضارة شيء ، رعاة وعباد أوثان ، وقد استفادوا من الحضارة الرومانية في الزراعة والنظم الإدارية ، بل فيما هو أهم من ذلك : إنهم اعتنقوا الديانة المسيحية على المذهب الكاثوليكي وان بالقوة كما في عهد شارلمان مثلا [(١)] ، فقد استوطن الجرمان في وسط أوروبا وغربها وكذلك الأنجلوسكسون في انجلترا والسلاف إلى شرق أوروبا ... الخ . وعليه فبعد استعراض السياق العام للأحداث يجد المرء أن هناك اتصالا حضاريا بشكل ما ، ولكن الغالب عليه هو الفتح والسيطرة وإلغاء الآخر ، وهذا يعني أن هذه الشعوب تقيم حضارات تطبعها بطابعها ، يخيّل للمرء أنها حضارة مستقلة بعينها وهي ليست سوى امتداد لما سبق في السلم الحضاري البشري في منطقة المتوسط ، وذلك جلي في الحضارة اليونانية وامتدادها الرومانية ، غير أن المشترك بين هذه الشعوب هو عدم التعاون وإلغاء الآخر الذي ربما يكون مقبولاً في تلك الفترات ولم يعد مقبولاً الآن ، فلم يعد التطور الحضاري للبشرية يسمح بذلك .

٣ - الشعوب الصينية :

وهكذا نرى أن الميدان الحضاري العام قد حدد لنا طرفين من أطراف المسرح الدولي السامي العربي الإسلامي والآري الأوروبي المسيحي وهذا يعني أن نعمل على إكمال المشهد التاريخي على المسرح الدولي بالحديث عن العنصر الثالث وهو عنصر الشعوب الصينية ،

---

(١) تاريخ أوروب العصور الوسطى . القسم الأول . هـ أ ل فشر . ترجمة : محمد مصطفى زيارة ، السيد الباز العريني . الطبعة الثالثة . دار المعارف بمصر ص٩٢ .

حيث إن هذا العنصر يبلغ من الضخامة العددية أنه يشكل أكثر من خمس العالم ويمتلك حضارة من أعرق الحضارات ، وهي في موقعها توازي حضارات العالم القديمة الرئيسية الآشورية والفرعونية وما بعدها من الحضارات ، هذه الحضارة هي الحضارة الصينية وغيرها من حضارات اليابان وكوريا التي تقع شرق آسيا في منطقة تمتلك مقومات حضارية كبيرة من حيث الموقع والمقومات الاقتصادية والمناخ أيضاً الذي يتيح لأي تجمع بشري إقامة حضارة وتكوين كيان دولة إمبراطورية ذات وزن ثقيل كإمبراطوريات الصين المتعاقبة التي يخيل للناظر من الوهلة الأولى أنها منعزلة عن باقي الحضارات ، إلا أنها ليست كذلك ، بل ربما أن التعاون الحضاري والتبادل السلعي كان موجودا ، بل ربما أدى إلى تعارف واعتراف متبادل بين حضارات العالم القديم ومنها الحضارة الصينية ، وذلك رغم التباعد الجغرافي بين إمبراطوريات هذه الحضارات ، فلم يكن هناك من اتصال وتواصل سوى السبل المدنية للحضارة كالتجارة مثلا ، وما من أحد يجهل طريق الحرير الذي يربط بين حضارات شرق المسرح الدولي (الشرق الصيني) وبين حضارات غرب المسرح الدولي (غرب آسيا وأوروبا) ، وكذلك موقع الصين في شرق آسيا الذي يمثل حلقة مهمة في الحركة التجارية البحرية عبر المحيطين الهندي والهادي مع تلك الحضارات وغيرها .

٤ - الشعوب الإفريقية :

القارة الإفريقية تختلف عن باقي المسرح الدولي عبر قارات العالم القديم الثلاث ، إذ إن إفريقيا يمكن أن تقسم إلى قسمين يفصل بينهما حاجز طبيعي ضخم بحجم الصحراء الكبرى الإفريقية ، مما

نتج عن ذلك وجود عالمين منفصلين ومختلفين ، فشمال القارة مرتبط ومتفاعل مع حضارات غرب آسيا وحوض المتوسط يؤثر ويتأثر وبالتالي بقية حضارات المسرح الدولي ، بينما جنوب القارة معزول عن شمالها إلى أن جاءت الحضارة الإسلامية التي فتحت خطوط الاتصال مع باقي القارة جنوب الصحراء ، فكان من ثمار ذلك ازدهار دول كبيرة وحضارات عظيمة نشرت العلم والمعرفة ، إلى جانب نشر الإسلام بين أمم تلك المنطقة ، وما أوضح الدور الذي قامت به مدينة (تمبكتو) في هذا المجال وغيره عبر القرون اللاحقة .

وليس معنى ذلك أنه لم يكن هناك حضارات قبل الحضارة الإسلامية بل لا أحد يستطيع تجاهل حضارة الحبشة في شرق إفريقيا وكذلك بلاد النوبة ، إلا أنها لم يكن لها ذلك التأثير في الأحداث عدا المناطق القريبة منها كالتأثير الحبشي في جنوب الجزيرة العربية ، أما القارة جنوب الصحراء فقد كانت تتواصل بالعالم الخارجي عبر البحار والطرق التجارية البحرية وخاصة سكان السواحل مع سواحل جنوب الجزيرة العربية وكذلك شبه القارة الهندية وجزر جنوب شرق آسيا وربما الصين ، فيما بقي سكان وسط إفريقيا تغلب عليهم البدائية نتيجة العزلة التي فرضتها عليهم ظروف الجغرافيا والمناخ الاستوائي للمنطقة ، ومع ذلك يمكن أن أعزي قلة تأثير جنوب القارة الإفريقية في أحداث المسرح الدولي الكبير عبر قاراته الثلاث إلى وجود الصحراء الكبرى التي لم تسمح لوسائل التواصل بين الشعوب والحضارات سواء كانت طرق تجارية برية أو حتى من ظاهرة التدافع والحروب بين الأمم والحضارات التي هي سبب رئيسي قاسي للتفاعل الحضاري سواء

بخروج حضاري أو هجرات بشرية من داخل القارة أو عكس ذلك من خارجها كي تربط جنوب القارة بشمالها وبالتالي بالمسرح الدولي تأثرا وتأثيرا ، غير أن طوق هذه العزلة قد كُسر بقوة حين تمكنت أوروبا من استعمار القارة أثناء الحركة الاستعمارية الأوروبية الحديثة .

المبحث الثاني
الفكرة التي قامت عليها التكوينات البشرية

من المسلم به أن الإنسان كائن اجتماعي جبله الله سبحانه وتعالى على العيش في جماعات بشرية . وذلك منذ فجر البشرية حيث كان الإنسان في أمس الحاجة لوسائل الدفاع التي يحتمي بها من وحوش الأرض ، إذ أنه كان يعتمد على فرديته في كفاحه من أجل البقاء ، وشيئا فشيئا بدأت تتكون الجماعات البشرية الصغيرة نتيجة التكاثر فتعددت الأسر التي ما لبثت أن ظهرت الحاجة لديها للتعاون وتبادل المنافع ، مما أتاح لدى هذا الإنسان قدرات ووسائل دفاعية جديدة أتاحت له وسائل تأثير كثيرة وفرص بقاء كبيرة سمحت بدورها له بالتحسن الأمني الذي أخذ يعتمد على الدفاع الجماعي القائم على التعاون بين الكتلة البشرية الناشئة ، هذا التعاون الذي أخذ يجر فوائد أخرى نتيجة لهذا التكتل البشري الناشئ ، الذي لا يمكن تحقيقه دون استمراره والحفاظ عليه وعلى هذا الشكل من الحياة الاجتماعية مما حتم ظهور بعض الأنشطة والروابط التي تساعد على استمرار هذا التكتل ، من مثل ظهور القائد القوي المتمتع بقدرات عقلية وعضلية استثنائية تتيح فرض نوع معين من النظام ، وكذلك توجيه الجميع لخدمة تلك الجماعة بما يخدم المصالح العامة للجماعة ، وفي الغالب أن معظم هذه الجماعة بل جميعها من أصل واحد ، وذلك ضمن النمو الطبيعي للجماعة ، أي أسرة لها أب ثم عائلة لها كبير كالجد ثم عشيرة

تتكون من عدة أسر يكون لها رئيس ، تكون له فيها السلطة سواء بالتوافق أو القوة أو عن طريق التسلسل الأبوي ، ثم قبيلة تتكون من عدة عشائر يكون لها شيخ أو زعيم وهكذا[1]. ومن حالة إلى حالة تتنوع الاحتياجات وتظهر المشاكل وتزداد وسائل التنوع الاقتصادي نتيجة الاحتياجات الجماعية المتزايدة ، فكلما كانت الجماعة كبيرة كانت احتياجاتها كبيرة ومتعددة وبالنتيجة مشاكلها من نفس القياس ، وهذا المعنى ينطبق على كل الجماعات الأخرى ، وهذا ما سوف يؤدي إلى ظهور أنواع مختلفة من أشكال الاتصال بين هذه الجماعات ، حيث إن هذه التكوينات البشرية تحتاج إلى تبادل المصالح والمنافع .

من هنا نجد تكوينات بشرية متعددة في منطقة جغرافية معينة أو إقليم من الأقاليم فيه جماعات بشرية كبيرة ومتعددة على شكل قبائل وهي التكوين الأخير والأكبر في أي جماعة عرقية يسبق تحولها إلى شعب ، فالدولة التي تعتبر شكلا جديدا ومتقدما للغاية عن تكوين القبيلة وما دونها تبرز إلى الوجود نتيجة لتعدد مصالح واحتياجات هذه الجماعات فتظهر الصراعات إلى السطح ، والتي ينتج عنها بدورها الحروب التي هي أسرع وسيلة تعبير متاحة ، وربما أنها كانت أفضل وأسهل وسيلة لقيام الشكل الجديد من التكوينات البشرية وهي الدولة ، إذ إنه تحدث صراعات بين زعماء التكتلات البسيطة من القبيلة فما دون على المصالح والنفوذ إلى جانب الطموحات الفردية لدى كثير من الزعماء ، حيث إن الزعيم كلما تنوعت وتعددت وسائل

(١) العرب في العصر الجاهلي . حسين شعيب . دار الفكر العربي . بيروت . لبنان . ص ٢٤ .

القوة لديه كان طموحه أكبر ، وعليه تكون الآفاق لديه أوسع والتطلعات أكبر ، ومن هنا ظهر ما يمكن أن نسميه التفكير الشامل لتوحيد جنس معين لمواجهة ظروف الحياة المحيطة من مثل مواجهة جماعة أخرى أو مواجهة كارثة طبيعية أو القيام بأعمال جماعية جديدة مثل ظهور الزراعة لمواجهة الأعداد المتزايدة من الناس أو للغزو والقتل والنهب ، كما يحصل في كثير من مناطق العالم آنذاك ، أو الهجرة إلى مناطق أخرى أكثر غنى وثراء وذات إمكانات نهوض جديدة ، ولا يمكن إهمال الطموحات القيادية لدى قيادات تلك الجماعات التي استطاعت في نهاية الأمر تكوين قوات موالية لها وتأتمر بأمرها والتي هي نفسها ما سوف تعرف فيما بعد في التاريخ البشري بالجيوش التي تعتبر نتيجة لتلاقي مصلحي بين طموح الزعيم الطامح ومصالح الجماعة المتعددة ، ومن هنا ظهرت فيما بعد الجيوش الجرارة أو الجيوش الإمبراطورية ، وكذلك القادة العسكريون الكبار الذين كانوا يقودون تلك القوات الضخمة لتحقيق الأهداف المنوطة بها ضد الجماعة الخصم أو العدو بالقتل والإبادة ، ومع ذلك فقد ظهر على هامش العنف البشري المتبادل انجازات إنسانية مع مرور الزمن أفضت إلى ما يمكن أن يسمى فيما بعد بالحضارات التي هي من آخر اهتمام الكثير من أولئك القادة القساة ، حيث إن أكثر هؤلاء من أقل الناس علماً وفكراً فهم لا يجيدون سوى القوة والقتل بأبشع صوره ، ناهيك عن التدمير والإبادة التي هي سبب من أسباب اندثار حضارات عظيمة كانت ملء السمع والبصر .

فما هي أسباب اندثار كثير من الحضارات ؟

وحتى تكون الإجابة موضوعية فإنه يمكن أن القول أنها اندثرت بإحدى هذه الصور الثلاث التالية :

١ - الاندثار الذاتي ، وذلك بأن تنهار حضارة معينة بحروب وصراعات داخلية وما إلى ذلك.

٢ - اندثار بفعل الكوارث ، كأن تصاب بجفاف في مناطق نفوذها أو الأوبئة القاتلة جماعياً... الخ.

٣ - الاندثار بتبادل الإبادات بين المجموعات البشرية ، وهو الأسوأ والسائد وهو الذي سوف يشكل محور حركة التاريخ البشري مع الأسف.

وعليه نجد أن الأنانية الجماعية وحب السيطرة والاستحواذ على ما عند الغير والظلم المتبادل بين المجموعات البشرية هي المحرك لهذه الفظائع ، والتي كانت الطريقة الأسهل لتحقيقها بالطبع هي الإبادات الجماعية والتشريد والتهجير ، وبالتالي تدمير هذه الحضارة أو تلك ، وبإلقاء نظرة على حضارات الشرق الأدنى القديم الذي هو الجزء الأهم على مسرح الأحداث بالنسبة للعالم القديم فإن هناك عدة إمبراطوريات تعاقبت على حكم هذه المنطقة بأسلوب الإبادة الذي يطبقه الغالب على المغلوب كالأكادية ، والبابلية مثلا . ونلاحظ أن هذه الإمبراطوريات كانت ترث بعضها بعضاً ، أي أن كل إمبراطورية تبيد وتزيل السابقة حتى أنها خربت المعالم الحضارية والعمرانية لتلك الدولة ، يسند ذلك بقايا شعب حكم المنطقة وأقام حضارة كبيرة وهو الشعب الآشوري ، وليس هناك ما يمكن أن تسميه اختلافا بين هذه

الإمبراطوريات في تحقيق التوسع إلا في الأهداف ، فالاستراتيجيات مختلفة حسب التوسع الإمبراطوري ، وحسب التطور الحاصل لوسائل الحرب الناتج عن التطور التاريخي ، وكذلك المعطيات الجديدة المتاحة أمام القوة الجديدة ، تلك المعطيات التي لم تكن متاحة أمام القوة السابقة ، وذلك نتيجة مفارقة عجيبة هي التطور الحضاري الذي يسير على استحياء مع هذه الهجمات البشرية الوحشية وعلى هامش حركة الحروب الوحشية التي مارسها البشر بين بعضهم البعض نتيجة تلك الأفكار المهلكة من أطماع ونفوذ وتوسع ، يتبع ذلك كما أشرنا قبل قليل توسع في المفاهيم الحضارية وتوسع الآفاق الجغرافية نتيجة الأطماع ، بما يمكن بعض القوى أن تدفع بالأخرى إلى مناطق نفوذ جديدة وتترك مناطقها القديمة للقوى الجديدة الطاغية عليها ، مما يتيح لبعض القوى المندحرة وسائل قوة جديدة تمكنها من الوقوف في وجه تلك القوة الطاغية عليها أو تمارس هي نفسها ذلك الطغيان الذي كانت هاربة منه ضد آخرين ، وذلك نتيجة لمصادر الثروة التي أتيحت لها في تلك المناطق الأخرى التي نزحت إليها ، مما يحدث نوعا من التوازن في القوة بين هذه القوى ، أو يؤدي إلى ظهور قوى عالمية كبرى مسيطرة على آفاق القوة في عالمها القديم ، وذلك بتسخير كل إمكانات شعوب تلك المناطق وطاقاتها لحروب التوازنات القائمة بينها ، تلك التوازنات القائمة على الصراعات وتمجيد القوة وتكوين الجيوش الجرارة التي هي في غاية الوحشية ، فما إن تتمكن قوة من هزيمة قوة حتى تعمد إلى أقسى الأساليب لعلها تتمكن من القضاء على الأخرى ،

وقد كان ذلك واضحاً في الصراع بين أعظم إمبراطوريات ذلك العصر الفرس في الشرق والرومان في الغرب.

أخيراً نلاحظ ملاحظة أشير لها سابقاً في نفس الموضوع وهي دفع الجماعات بعضها لبعض ، وذلك بالضغط والتهديد بالقوة والإبادة مما يجعل الأضعف في حالة اختيار بين خيارين كلاهما سيئ الإبادة أو التهجير ، وذلك واضح من الهجرات الجرمانية على غرب أوروبا ، فنلاحظ أن القوط الغربيين قد وصلوا اسبانيا ، في حين أن إخوانهم الشرقيين وصلوا إلى إيطاليا تحت ضربات قبائل أخرى من البرابرة وربما يكونون الوندال أو غيرهم الذين وصلوا إلى شمال إفريقيا وذلك عبر أوروبا نتيجة هذا التدافع الشديد ، في حين أن السلاف موجة أخرى استوطنت شرق أوروبا وهي ربما في حالة دفع للشعوب الجرمانية.

وكل ذلك تحت مبدأ القوة الطاغية والسيطرة والإبادة التي تجلت في ممارسات مختلفة ، فنجد أن الشعوب الأوروبية الجرمانية عانت من بعضها البعض ، ولا أشهر عندهم بالقسوة والإبادة الجماعية من الملك أتيلا وشعبه الهون المغوليين الذين ربما عانت معظم القبائل الجرمانية إن لم تكن كلها من بطشهم ، حيث إنهم مجرد بادية رحل يجيدون الفروسية ، جل نشاطهم قائم على النهب والسلب والغزو ، الأمر الذي فعله بنو جلدتهم المغول بنفس الطريقة وأكثر في العصور اللاحقة زمن الخلافة العباسية ، حيث اجتاحوا الصين على يد جنكيزخان وفعلوا

(١) تاريخ أوروبا العصور الوسطى . القسم الأول . هـ أ ل فشر . ترجمة : محمد مصطفى زيادة ، السيد الباز العريني . الطبعة الثالثة . دار المعارف المصرية . ص . ٢١ .

فيها الأفاعيل ، ولم يكن حفيده هولاكو بأفضل منه فقد أقام المذابح وأقام أهرامات الجماجم في العواصم الإسلامية والتي من ضمنها عاصمة الحضارة الإسلامية بغداد التي دمرها ودمر حضارتها بأبشع صور الهمجية [١].

ومع أن الإنسان قد بلغ مبلغا من التطور الحضاري إلا أنه لم يستفد كثيرا من هذا التاريخ المظلم لتجنب ما وقع فيه أسلافه بل إنه استخدم وسائل التقدم العلمي لتكريس هذه الظاهرة المؤسفة ، فحين تمكن من ارتياد أعالي البحار وتعرف على قارات وشعوب أخرى استأصلهم وأباد حضاراتهم كما حدث فيما سار يعرف اليوم العالم الجديد ، فما بالك بما حدث أثناء الحربين العالميتين الأولى والثانية بين أبناء الحضارة الواحدة من إبادات كانت بالملايين . ما هذا ؟ .

(١) تاريخ أوروبا في العصور الوسطى . د . السيد الباز العريني . دار النهضة العربية . بيروت ص . ٩٨ .

المبحث الثالث

المسرح الذي دارت عليه الأحداث

تعتبر قارات العالم القديم هي المسرح الذي دارت عليه الأحداث طوال فترة العصور القديمة ، كما أن هذا المسرح استمر تعرض عليه مسرحياً أحداث العصور اللاحقة إلى يومنا هذا ، فمن خلال إلقاء نظرة عامة على هذا الميدان أو المسرح من شاهق نجد أنه دارت عليه معظم أحداث التاريخ ، إمبراطوريات عظيمة سادت وغيرها دول صغيرة متفرقة كثيرة تدور في فلكها نتيجة هجرات هذه الشعوب ، يدفع بعضها بعضا في حركة دائمة متنقلة من مكان إلى آخر في هجرات متتالية ومتباينة صغيرة وكبيرة ومؤثرة ، تتماوج وتتدافع في حركة تاريخية دائبة ، فمنها من تصادف منعطفاً تاريخياً تستفيد منه فتزدهر هذه الموجة الشعبية وتقيم دولة عظيمة وحضارة سامية ، ومنها من تفشل وتندثر أو تندمج في الموجة السابقة أو اللاحقة التي استطاعت التكون والظهور على مسرح أحداث العالم ، ومنها هجرات عظيمة وكبيرة ولكنها لم تنجح في إقامة حضارة ، بل إنها كانت الوباء المسلط على الأمم السابقة ذات الحضارة فتدمرها ، فإما أن تقيم حضارة على أنقاض هذه الحضارة وترثها وتطبعها بطابعها أو نهلكها وهو الغالب من مثل الطوفان المغولي العنيف الذي ضرب العالم في العصور الوسطى [1].

مع ملاحظة أن هناك مناطق على هذا المسرح مصدرة للهجرات

(١) التاريخ الإسلامي العام . د . علي ابرهيم حسن . مكتبة النهضة المصرية . ص ٤٧٠ .

البشرية عبر التاريخ أي (مهاجر بشرية) مثل الجزيرة العربية التي يعتقد على نطاق واسع أن معظم الهجرات السامية قد خرجت منها إلى المناطق المجاورة للجزيرة : العراق والشام وربما مصر وشمال إفريقيا ، وهي المنطقة التي ظهرت فيها الحضارات العظيمة في تلك المنطقة قبل إمبراطوريتي الفرس والروم ، كحضارات وإمبراطوريات الأشوريين ، والسومريين، والأكاديين، والبابليين ، إلى جانب دول أخرى ليست بهذه المكانة ولا مجال للسرد ، وقد تعاقبت هذه الإمبراطوريات على الجزء الذي يسمى العراق والشام من (المسرح الدولي الكبير) أي القارات الثلاث القديمة ، هذا الجزء الذي سوف يكون أهم أجزاء المسرح الكبير ولفترة طويلة فيما بعد ، أضف إلى هذا حضارة مصر الفرعونية التي ظهرت في العصور القديمة في سلالات عظيمة متتالية ، مسفرة للعالم عن حضارة تعد من أعرق حضارات الدنيا ، وقد تزامن اندثارها مع اندثار الحضارات القديمة في الشام والعراق ، مما يعني أنها أي مصر ستكون في المستقبل مسرحاً لأحداث أخرى بالاشتراك مع العراق والشام ، ويكون بطلاً أحداث هذه المرحلة على المسرح الدولي إمبراطوريتي الفرس والروم التي سيكون بنهايتهما نهاية العصور التاريخية القديمة ، ولأن إمبراطوريتي الفرس والروم بلغتا آفاقا غير مسبوقة من التوسع فقد أدركتا مكانة البحر المتوسط الإستراتيجية التي من اجلها كان الصراع على أشده بينهما ، فقد دارت بينهما حروب طويلة للسيطرة عليه استهلكت كل إمكانياتها وإمكانيات الشعوب الخاضعة لها .

أما في شرق (المسرح الدولي) فكانت هناك أحداث من نوع آخر ، أبطالها من جنس مختلف وهو الجنس الصيني الذي استطاع أن يقيم حضارة عظيمة وإمبراطوريات كبيرة وثقافة عظيمة على مدى الفترة التاريخية الموازية في غرب المسرح على شرق المتوسط ، ولها تاريخها في صراعاتها وحروبها وبنائها الحضاري المميز ، إلا أنها ليس لها صراعات مع الحضارات المحورية في غرب آسيا وذلك لبعد المسافة ولاختلاف التوجه لكل منها .

ولا ننسى حضارة أخرى عظيمة وكبيرة في شعوبها ومنطقتها ونتاجها الحضاري هي الحضارة الهندية التي لها خط مختلف في أسلوبها وطريقة عيشها ، والملاحظ أنها لم تخرج في حركة توسعية كبيرة كما عند غيرها وربما سبب ذلك موقعها وثروة بلادها واتساع قارتها الهندية ، إلا أنها قد كان لها تفاعل حضاري واضح مع الحضارات الأخرى ، ومع ذلك فقد تعرضت لغزو من قبل إمبراطوريات أخرى في أزمنة لاحقة ، حيث إنه مع مرور الزمن قد تعرضت لغزوات مثل غزوات الاسكندر المقدوني وكذلك الفرس والعرب ، وشيئا فشيئا مع مرور الزمن نجد أن المسافات بين إمبراطوريات المسرح الدولي جميعها تتقارب وذلك لتطور وسائل التنقل وخاصة البحرية منها مما سهل حدوث الغزو والحروب بين أمم كانت لا تطمح لذلك لاستحالته ، حتى إننا سنرى أن المسرح سيكون واحدا بشكل واضح في الفترات اللاحقة وخاصة في فترة حركة الكشوف الجغرافية ومن ثم الاستعمار الأوروبي للعالم .

الجدير بالذكر أن هذه الإمبراطوريات وهذه الحضارات لم تكن كل فترات ازدهارها حروبا ونزاعات وصراعات ، بل هناك اختراعات عظيمة واكتشافات كبيرة وتحولات كبيرة في طرق العيش ، فاخترعت الكتابة في العراق وفي الصين وفي مصر ، ونظمت الزراعة وانتشرت التجارة التي هي العمود الفقري لهذه التطورات كنتيجة منطقية للتواصل بين هذه الحضارات ، فقد عرضت كل حضارة ما عندها على الأخرى مما أدى إلى زيادة التواصل والتفاعل الحضاري والاستفادة مما عند الغير ، ومن أوضح وسائل الاتصال هنا أشهر الطرق العالمية الذي يربط بين الشرق والغرب (طريق الحرير) وهو أعظم طريق بري على وجه الأرض.

وكذلك التواصل البحري عبر البحار والمحيطات المحيطة بقارات العالم القديم آسيا وإفريقيا وأوروبا . أما وسط آسيا فهو عبارة عن صحارى شاسعة ومناطق رعوية مترامية الأطراف تسكنها القبائل البدائية الرعوية التي سوف يكون لها شأن كبير في قابل الأيام ، حيث إن هذه المنطقة سوف تعج بالأعاصير البشرية التي سوف تعصف بالعالم بين الحين والآخر طوال فترات العصور التاريخية المتتالية ، ابتداء من الموجات الأولى للقبائل البربرية التي اجتاحت أوروبا الرومانية ، حيث كان لهذه القبائل إمكانية إنهاء هذه الإمبراطورية في نهايات القرن الخامس الميلادي في جزء الإمبراطورية الغربي ، إلا أن هذه الموجات استمرت عبر العصور الوسطى في مناطق أخرى من العالم القديم ، ففي شرق أوروبا استوطنت القبائل السلافية ، أما القبائل التركية فقد سيطرت على أراضي الدولة الإسلامية وشرق الدولة البيزنطية ،

في حين اجتاح المغول العالم في ذلك الوقت حتى أنهم تمكنوا من إسقاط عاصمة الخلافة الإسلامية في بغداد ، ولا أجد نهاية لهذه العواصف البشرية إلا بنهاية الهجرات التركية الحديثة التي نتج عنها الدولة العثمانية ، فالدولة العثمانية هي عبارة عن موجة بشرية خرجت من أواسط آسيا نحو آسيا الصغرى ، وقد دخل جزء من هذه الموجة في الإسلام بدخول إحدى قبائلها في الإسلام حيث كان لها حمل لواء الإسلام في حركة الصراعات الدائرة بين هذه الموجات ، إذ إن هذه الشعوب اعتنقت الأديان السائدة في المناطق التي سيطرت عليها وورثت حضاراتها . وقد رعت القوى الدولية السائدة آنذاك إدخال هذه القبائل في أديانها لاحتوائها وتجييشها ، فقد انتشر الإسلام بين الأتراك بفضل المسلمين ، بينما نشرت بيزنطة الأرثوذكسية بين القبائل السلافية ، أما القبائل الجرمانية فقد دخلت في الكاثوليكية بقوة ملوكهم وباباوات الكنيسة على مذهب الإمبراطورية الرومانية الغربية ، وهذا يعني استمرارية الصراعات بين هذه القبائل المتصارعة والطاردة لبعضها البعض في موجات متتالية ولكن بفكر جديد وعقائد مختلفة ، سنجد تجليتها واضحة في حركة الفتوح العثمانية لشرق أوروبا ، وفيما يعرف قبل ذلك في التاريخ بالحروب الصليبية ، إذ إنه لا يوجد صراع إسلامي مسيحي بين المسلمين وأوروبا قبل الحروب الصليبية ، وذلك جلي وواضح في الفترة التي سبقت الحروب الصليبية منذ الفتوح الإسلامية الكبرى التي بلغت أوجها بفتح المسلمين للأندلس ، تلك الفترة التي كانت دول أوروبا الجرمانية تدخل شعوبها في الكاثوليكية بالقوة برعاية باباوات الكنيسة وخاصة زمن الدولتين الميروفنجية

والكارولنجية ، ثم إن الشعوب الأوروبية كانت من أول المستفيدين من التسامح الإسلامي الذي لم يكونوا يعرفونه في ظل الدولة الرومانية بشقيها الشرقية والغربية ، هذا التسامح الذي بلغ أوجه بين المسلمين والمسيحيين في ظل الدولة الإسلامية في الأندلس ، والذي أسفر عن حضارة الأندلس العربية الإسلامية العظيمة .وعليه نجد أن الصراعات المتبادلة بين هذه القبائل لهدف السيطرة والنهب والقتل في صورتها البدائية هي نفسها التي أشعلت الحروب الصليبية على المسلمين تحت شعار الدين وتحرير الأماكن المقدسة ، فما زالت أساليب الحروب والغزو عند الأوروبيين تاريخية وقديمة قدم هجراتهم البدائية البربرية القديمة التي قضت على الإمبراطورية الرومانية الغربية ، ويظهر ذلك جليا وواضحا في حركة الكشوف الجغرافية وكذلك حركة الاستعمار والاستيطان .

المبحث الرابع
نهاية الصراع بين الشرق والغرب

صراع الشرق والغرب هو ما دار بين دولتي الفرس والروم القوتين الكبيرتين في العالم القديم ، فقد نشأت إحداها على طرفي البحر المتوسط وعلى أنقاض ما سبقها من إمبراطوريات ودويلات فتكونت الإمبراطورية الرومانية في جنوب أوروبا في ايطاليا تحديدا ، وما لبثت حتى توسعت واستحوذت على كامل البحر المتوسط ومعظم أوروبا مما جعلها في نهاية الأمر القوة الوحيدة التي لا منافس لها في البحر المتوسط ، وخاصة أنها تمكنت من القضاء على عدوها التقليدي في المنطقة قرطاجة التي بإخضاعها تمكنت من ضم شمال إفريقيا[١]، أما في الشرق فظهرت دولة الفرس في بلاد فارس إيران اليوم ، ثم توسعت أيضا في المناطق المتاخمة لها في أواسط آسيا والهند والعراق وأرمينيا ، وما إن بلغتا أقصى مد توسعي حتى تماستا هاتان القوتان الكبيرتان في منطقة الشرق الأدنى بلاد الشمام ومصر والعراق التي ستكون ميدان ما سوف يعرف فيما بعد من تاريخها وتاريخ المنطقة بالصراع بين الشرق والغرب [٢]، في محاولات متبادلة للسيطرة على المنطقة أو حتى القضاء على الآخر إن أمكن ذلك ، وقد ارتكب خلال هذه الحروب الطويلة والطاحنة شتى أنواع الفظائع ، ونال شعوبهم

(١) موسوعة تاريخ أوروبا العام . إشراف : جورج ليفيه ، رولان موسنييه . الجزء ١ . ترجمة . أنطون أ الهاشم . بيروت – باريس . ص ١٨٣ .

(٢) الحضارة البيزنطية . د . نعيم فرح . منشورات جامعة دمشق . ص ١٠ .

وما تحت سيطرتهم من شعوب من الويلات الكثير في أنفسهم وأموالهم وأوطانهم ، فما كان إلا أن تحطمت تلك الشعوب وخارت قوى هاتين الإمبراطوريتين مما سهل على القوى الجديدة الصاعدة القضاء عليها ، وهذا ما حدث بالفعل على يد القوة العربية الإسلامية الصاعدة القادمة من الجنوب من جزيرة العرب ، حيث إن هذه القوة تمكنت من السيطرة على معظم المناطق الخاضعة لسيطرتهما في آسيا وإفريقيا وكذلك أيبيريا الأوروبية[1]، مما أتاح لهذه المنطقة التي تقع بين حدود الصين شرقا وجبال البرانس غربا التمتع بالوحدة الجغرافية لقرون قادمة .

وقد كان الصراع بين الشرق والغرب في بدايته بين الفرس واليونان محتدما ، إلى أن تم لروما وراثة الحضارة اليونانية بدويلاتها ، والظاهر أن الوراثة كانت لكل شيء وليس للحضارة فقط ، وعليه فقد استمرت هذه الحروب والصراعات لقرون للسيطرة على مناطق النفوذ .

وفي نهاية المطاف أنهكت قوى الدولتين نتيجة لهذه الحروب الطويلة التي لم تحسم في الحقيقة لصالح أي من الطرفين مما سهل على هذه القوة الإسلامية الصاعدة القضاء عليها كليا ، كما حدث للفرس أو شبه كلي كما حدث للروم ، ناهيك عن الإنهاء البطيء والطويل للإمبراطورية الرومانية الغربية على يد القبائل الجرمانية ، إلى جانب هذه الحروب التي أفلست الإمبراطوريتين ونتيجة لذلك عم الدمار والظلم المناطق التي كانت تحكمها ، حيث سخرت طاقات وثروات تلك

(١) تاريخ أوروبا في العصور الوسطى . د .السيد الباز العريني . دار النهضة العربية . بيروت . لبنان . ص . ٢٠٨ .

المناطق وكذلك شعوبها لخدمة كياناتها الغاصبة الكبيرة التي لا تخدم المصالح الملحة للشعوب المقهورة وخاصة في مصر والشام والعراق ، وكذلك حتى شعوب الإمبراطوريتين كالفرس مثلاً الذين ما إن فتح المسلمين بلادهم وفرضوا انتشارهم العسكري على الأراضي التي كانت خاضعة للفرس حتى أنهم لم يجدوا مقاومة ذات بال من الفرس وغير الفرس ، وانتشرت دعوتهم الإسلامية الجديدة بين الفرس بيسر وقبول كبير ، وكذلك الشعوب الأخرى . بل إن الجيوش الإسلامية كانت صغيرة وقليلة العدد بالنسبة للجيوش الجرارة لهاتين الدولتين وذلك يرجع لسخط الشعوب من ظلم تلك الدولتين ورفضها لهذه الحروب الطويلة التي لا طائل منها ، وكذلك يرجع للعقيدة التقدمية الجديدة التي خرج بها المسلمون إلى العالمين القائمة على التسامح والعدل والحرية وعدم القتل والسلب والنهب والتدمير، إلى جانب الدعوة لعبادة الله وحده ونشر الإسلام بمفاهيمه الإنسانية الجديدة التي يطبقونها بجدية وصدق على أنفسهم وعلى تلك الشعوب دون تفريق ، فكان لها أكبر الأثر في نفوس سكان المناطق المفتوحة ، فقد كان يسبق المسلمين إلى البلاد المفتوحة عدل المسلمين ورحمتهم ووفاؤهم بالعهود ، فاطمأنوا الناس على أنفسهم وعلى أملاكهم وبيوتهم ، حيث لم يكن الهدف عند المسلمين هو التدمير والحرق والانتقام بل إقرار الناس على ما هم عليه ، ولم يطلب من أحد الدخول في الإسلام بالقوة ، فهذا ممنوع في الإسلام الذي يحرم على المسلمين هدم أو الاعتداء على دور العبادة للأقوام التي لا تريد الدخول في الإسلام قال تعالى : ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ

ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾(١) ولا أدل على ذلك من بناء جامع عمر بن الخطاب الخليفة الثاني بالقرب من كنيسة القيامة في بيت المقدس(٢).

من هنا أيضا نجدً أن العرب المسلمين الذين خرجوا بدعوة فكرية إصلاحية عالمية تدعو الناس لعبادة الله وكذلك نشر التسامح والعدل والمساواة بين الناس(٣)، أنهم ربما أول فاتحين يخرجون من حدودهم للفتح لنشر القيم الإنسانية وليس للقتل والبطش ، فقد كانوا أقل الفاتحين بطشاً بالشعوب الأخرى إن لم نقل إنهم لم يبطشوا بأي من تلك الشعوب ، وذلك جلي تاريخيا . على عكس خروج الشعوب الأخرى بإمبراطورياتها التي كانت نتيجة لطفرة بشرية كما يحدث من شعوب آسيا الوسطى ، أو نتيجة لقوة اقتصادية أو عسكرية أو قيادة طاغية ، ولكن الهدف تقريباً واحد في صور متعددة وهو السيطرة والتوسع وقهر الشعوب المفتوحة ، وغالباً ما يصاحب ذلك الدمار والخراب والإبادة ، فالتاريخ مليء بهذا ، ومع ذلك فإن طبيعة الجغرافيا وحركة التاريخ تنحو نحو التعاون والتواصل بين الشعوب والحضارات الإنسانية وإن كان بصورة بطيئة للخروج بالبشرية من هذا المأزق والخروج بحضارة عالمية واحدة في نهاية المطاف ، ولكن السائد والعالمي أن الرغبة

(١) سورة البقرة . الآية . ٢٥٦ .

(٢) عصر الخلفاء الراشدين . د . عبدالحميد بخيت . الطبعة الرابعة . دار المعارف بمصر . ص ١١٨. ٠

(٣) تاريخ أوروبا العصور الوسطى . القسم الأول . ه- أ ل فشر . ترجمة : محمد مصطفى زيادة ، السيد الباز العريني . الطبعة الثالثة . دار المعارف المصرية . ص. ٦١ ٠

في الحروب والدمار وإهلاك الزرع والنسل أحدث شيئا غير ذلك من دون إلقاء بال لمفكري وفلاسفة هذه الحضارات الذين يريدون الخير للناس والذين يدركون حتمية التعاون والتواصل العالمي في نهاية المطاف ، فقد حدث التواصل التجاري عن طريق عامة الناس ، وما أدل على ذلك من الطرق التجارية ، وكذلك تمكنت الشعوب بوعي أو بغير وعي من تعاون في أعظم اختراع بشري وهو الكتابة ، وما أشهر الكتابة المسمارية التي كانت بداية الكتابة بين شعوب منطقة الشرق الأدنى ومن ثم إلى غيره من المناطق الأخرى ، إذ نجد أن الشعوب كلما تقدمت عبر الزمان نجد أن مسوغات التواصل بينهما تتعدد حتى أن الحيز الجغرافي كلما اتسع فإن المعرفة العامة لهذه الفترة المعينة في التاريخ تتسع أيضاً ، وذلك أن الأفق يكون أوسع كلما اتسعت الرقعة الجغرافية وكانت أكبر ، وهذا واضح لكل متتبع للتوسع الجغرافي لكل دولة من الدول الكبرى القديمة في العراق ومصر والشام إلى أن جاءت الإمبراطوريتان الفارسية والرومانية اللتان كانتا ذات توسع نوعي ، حيث أصبحت كل إمبراطورية تشمل مناطق واسعة ومتباعدة تضم حضارات عديدة قديمة وعريقة ، مما أدى إلى إحداث مفاهيم جديدة لم تكن معروفة للحضارات السابقة نتيجة لمعارف جديدة لم تكن متاحة ووسائل قوة واتصال أحدث ربما كانت من أسباب القوة التي أشعلت الصراعات بين هاتين القوتين .

نفس المفاهيم والمعارف والوسائل تلك وما استجد من معارف أخرى كانت متاحة للقوة الإسلامية الجديدة ، إذ إن القوة الإسلامية ما إن خرجت في بداية القرن السابع الميلادي من جزيرة العرب وبلغت أوج

توسعها مع بداية القرن الثامن ، حتى استفادت منها في بناء حضارتها التي امتدت من جبال البرانس في أوروبا من الغرب وحتى حدود الصين من الشرق ومعظم الهند من الجنوب ، فقد أتيحت لشعوب هذه المناطق الشاسعة التواصل ضمن هذه الحضارة واحدة بدون عوائق .

فلم يكن هناك في الدولة الإسلامية إكراه في الدين ، فهذا مبدأ ضخم في الإسلام لا يمكن تجاوزه عند المسلمين ، ويترتب عليه احترام شعائر الطوائف والشعوب الأخرى ودور عباداتها ، وليس هذا فحسب بل حمايتها وإتاحة الفرصة لها للنمو والاشتراك في البناء الحضاري الجديد(١)، الذي ربما أتاح الفرصة للنموذج الحضاري الأولي العالمي الواحد للظهور لأول مرة وإن كان في ظل كيان واحد هو الدولة الإسلامية ، حيث إن الحضارة الإسلامية كانت البوتقة التي التقت فيها الحضارات القديمة لأول مرة في حضارة عالمية جديدة متعددة المشارب قائمة على التعاون بين شعوبها المتنوعة ، ولا أدل على ذلك من حركة الترجمة التي حصلت زمن خلفاء بني العباس من لغات الحضارات القديمة الرومانية والفارسية والهندية إلى اللغة العربية لغة الحضارة الإسلامية الجديدة .

أيضاً مما عزز مبدأ التواصل الحضاري أن المسلمين بدعوتهم الجديدة لم يهجروا الشعوب من بلدانها ولم يهدموا حضاراتهم ولم يخربوا مدنهم ، فهذا مناقض لعالمية الإسلام وتعاليمه وحضارته ، بل نجد أن التعايش بين المسلمين والشعوب الأخرى هو السائد كما في

(١) تاريخ أوروبا العصور الوسطى . القسم الأول . ه- أ ل فشر . ترجمة : محمد مصطفى زيادة ، السيد الباز العريني . الطبعة الثالثة . دار المعرف المصرية . ص . ٦٤ .

بلاد فارس ومصر والأندلس ، فما زال أقباط مصر على قبطيتهم وما زال نصارى الأندلس على نصرانيتهم ، فربما لو أن المسلمين أجبروا الأسبان على الإسلام لما حصل الذي حصل لمسلمي الأندلس ، وهنا يتضح الفرق بين أسلوبين مختلفين ، أسلوب الإقصاء أو الإكراه والقتل الذي تحذر منه الديانات السماوية ، وأسلوب التعاون والتواصل وإتاحة الفرص للجميع الذي تدعو له والذي نتج عنه ظهور حضارة عالمية سادت العالم لعدة قرون في العصور الوسطى ، أنهت الصراعات الكبيرة الطاحنة التي أهلكت الثروات وأشعلت الحروب بين الشعوب فيما ليس مطلوبا منها ، فالمطلوب منها عمارة الأرض ، وقد أتاحت الحضارة الإسلامية هذه الفرصة للبشرية بجميع أطيافها كنسخة حضارية عالمية أولى لحضارة عالمية ترمقها أعين البشر من بعيد بشوق وأمل ، وعليه فإنه يمكن القول إن النموذج الحضاري الإسلامي هو القاعدة المتينة التي سوف تقوم عليها الحضارة الأوروبية الحديثة ، التي ربما تعد حضارة عالمية بصورة أوسع وأشمل بنكهة أوروبية يكون ميدان عملها هو العالم بأسره ، ألا أنها ارتكبت خطأ قاتلا وخطيرا كانت نتائجه وخيمة على الكثير من شعوب العالم خاصة وأنها وريثة الحضارة ، فقد كان حري بها أنها تلافت الوقوع في ازدواجية المصادر الحضارية لنهوضها الحضاري ، ففي حين أنها أخذت من المصدر الإسلامي الروح العالمية للحضارة القائم على التعاون وتبادل المصالح بين شعوب الأرض ، الذي هو عبارة عن تراكم لتطور الحضارة الإنسانية ، فإنهم تعاملوا مع الشعوب التي خضعت لهم بروح رومانية استعمارية تكون فيها السيادة للقوة وصاحبها الأوروبي بالطبع ، وبأساليب التعالي

والكبر والبطش واستئصالية تذكر العالم بالهجرات الجرمانية البربرية الأولى ، وقد كان ذلك واضحا في قارات العالم الجديد ، وهذا ما أدى إلى أن الكثير من الناس يعتبر حضارة اليوم أوروبية في ثوب استعماري عالمي ، وذلك مع معرفة الكثيرين أن العالم لم يعد يقبل بالتوارث الحضاري على طريقة الحضارات القديمة ، إن العالم يتجه اليوم إلى بناء الحضارة العالمية الكبرى التي يحلم بها والتي أيضا تمثل مشاركات أقطابه فيها دون إكراه أو منة وتكرم من أحد ، وعليه فيجب على رواد الحضارة اليوم الأوروبيين أن يبادروا إلى التعاون الإيجابي مع أقطاب الحضارة الآخرين بروح تؤكد ريادة حضارتهم وعالميتها .



الفصل الثاني

في ثنايا تاريخ العرب المسلمين والجرمان

المبحث الأول
التشكل الأوروبي الجديد

تعتبر سواحل البحر المتوسط منطقة جذب لكل الهجرات البشرية على مدى التاريخ ، وربما يكون ذلك بسبب الثروات المتعددة التي تزخر بها المنطقة ، ومن أهم هذه الثروات الحبوب وخاصة القمح الذي يعد سببا رئيسيا لظهور الحضارات المتعاقبة عبر التاريخ ، ناهيك عن المناخ المثالي لازدهار هذه المحاصيل وغيرها ، التي على إثرها ازدهرت التجارة مما مكن شعوب المنطقة المتعاقبة من إنتاج الغذاء بكميات كبيرة سمحت بثراء تلك الشعوب ، فشرعت في تسلق السلم الحضاري الواحدة تلو الأخرى وذلك بتتابع الهجرات الواحدة تلو الأخرى ، ليس هذا فحسب بل أصبحت تثير طموحات الإمبراطوريات الكبيرة للسيطرة عليها مثل الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية وغيرهما .

والجزء الشمالي للبحر المتوسط ربما كان هو الأكثر جذبا لهذه الهجرات المتعاقبة على مدى التاريخ ، فهذه المنطقة دائمة التغير والتجدد البشري الذي يفضي بدوره إلى التجدد والتطور الحضاري وذلك في تعاقب حضاري مثير ، إذ إن من أشهر حضارتها الحضارة الهيلينية اليونانية ثم نسختها في صورة جديدة الحضارة الرومانية في عنصرها البشري الجديد وهم الرومان ، مما يعني في نهاية الأمر أن حضارات المنطقة حضارة واحدة بشعوب مختلفة ، كل شعب تميز في جانب من جوانب البناء الحضاري لهذه المنطقة ، وقد كان آخر هذه الهجرات البشرية الكبرى والمؤثرة إلى هذه المنطقة هي هجرات القبائل

الجرمانية [١] التي تعرف في التاريخ الأوروبي (بالبرابرة) ، حيث اجتاحت هذه المرة معظم القارة الأوروبية مخالفة بذلك ما سبق من الهجرات التي كانت محاذية لسواحل البحر المتوسط بما فيه جزر هذا البحر ثم تمتد إلي الداخل كما حدث في الفترة الرومانية ، وليس كل هذا من أسباب الجذب لهذه المنطقة ، بل هناك عوامل أخرى طاردة في المناطق الأصلية لهذه القبائل ، فقد كانت تخضع لظروف اقتصادية واجتماعية ومناخية صعبة أدت إلى صراعات كبيرة تمثلت في الحروب المتبادلة بين تلك القبائل التي أدت إلي ارتكاب الإبادات البشرية ، مما أدى إلى هجرة هذه القبائل إلى مواطن جديدة على فترات زمنية متباعدة أو متقاربة وذلك عبر القرون ، إذ وصلت إلى حدود الإمبراطورية في بدايات القرن الأول الميلادي ، وذلك بهجرات القوط الغربيين كموجة أولى مؤثرة في تاريخ هذه القبائل الذين وصلوا في نهاية الأمر إلى الجزيرة الأيبيرية غرب أوروبا نتيجة لدفع القبائل الجرمانية بعضها بعضا التي كانت تصل إلى حدود الإمبراطورية الرومانية ، لتستقر لوقت وجيز لعلمها بعدم قدرتها على مواجهة جيوش الإمبراطورية ، حتى تأتي موجة جديدة تدفع السابقة مما يضطرها وكذلك الإمبراطورية للتوغل في أراضي الإمبراطورية بالتراضي أو غير ذلك . فقد حتمت السياسة على الإمبراطور استخدام بعض القبائل لإخضاع أخرى مما جعل الإمبراطورية شريك في التشكل الجديد بقسط أو غير قسط وذلك من مثل استعانة الإمبراطور زينون بالقوط الشرقيين لتخليص ايطاليا من البرابرة الجرمان ، وقد استمرت هذه الهجرات حتى سقوط

(١) الحضارة البيزنطية . د . نعيم فرح . منشورات جامعة دمشق . ص . ١١٠ .

العاصمة روما في أيدي البرابرة الجرمان في أواخر القرن الخامس الميلادي الذي يعد بمثابة الإعلان الرسمي لسيطرة القبائل الجرمانية على غرب أوروبا ، فما إن وصلت أولى الهجرات الكبيرة والمؤثرة حدود الإمبراطورية حتى صارت تتعامل معها بما تحتمه المصلحة العليا للدولة ، ففي البداية أريد لهذه القبائل البقاء خارج الحدود ، ولم يسمح لها بالتوغل في الداخل إلا للقيام ببعض الأعمال التي يمكن أن يسمح بها كالزراعة وبعض الأعمال الخدمية وغيرها كعمال وما شابه ذلك[١]، إلا أن هذه الحال لم تستمر ، إذ جاءت موجات جديدة بقوة وعنفوان لا يمكن صده أو الوقوف في طريقه مما حتم على الموجة الأولى أو القبيلة الأولى الدخول إلى أراضي الإمبراطورية بموافقة الإمبراطور ما أمكن ، وقد أدرك الإمبراطور خطورة الموقف فيسمح بالدخول حسب رغبته وبما يمكنه من التوجيه إلى أي جهة يريد أن تذهب إليه القبيلة التي سمح لها بالدخول[٢]، وهكذا توالت الهجرات بعضها يدفع بعضا حتى أصبحت مشكلة تؤرق القائمين على شؤون الإمبراطورية ، مما أضطرها للسماح لبعض القبائل بعبور الحدود والتغاضي عمن يعبر عنوة إما هربا أو طمعا ، وقد جاء إلى أراضي الإمبراطورية الرومانية الكثير من القبائل الكبيرة والصغيرة التي عبرت إلى المنطقة والإمبراطورية في أوج عظمتها ، والحقيقة أن سلطات هذه الدولة وعلى رأسها الإمبراطور بذلت جهودا كبيرة لاحتواء هذه المعضلة بالحروب حينا وبالسياسة أحيانا أخرى لقرون ، ولكن لم تجد جهود

(١) تاريخ العصر الوسيط في أوربة . الجزء الأول . د . نور الدين حاطوم . دار الفكر . ١٨ .
(٢) تاريخ العصور الوسطى الأوروبية . الطبعة الرابعة . د . عادل زيتون . مطبعة دار الكتاب . دمشق . ص . ٧٦ .

الإمبراطورية سوى تأخبر النتائج التي وصلت إليها الأمور في نهاية المطاف وإن كان بعد قرون ، وكان من أبرز هذه القبائل التي لها تاريخ مؤثر بشكل أو بآخر القوط الغربيون الذين وصلوا إلى الجزيرة الأيبيرية تحت ضغط من بعض القبائل وبتدبير من الإمبراطور لإبعاد الأخطار عن مراكز الدولة الحساسة ، في حين أن قبائل الوندال وصلوا إلى شمال أفريقيا بنفس الطريقة . فقد كانت قبائل الجرمان يتوزعون على رقعة القارة هربا من بطش بعضهم البعض ، إذ توجه الإنجليز والسكسون إلي شمال فرنسا اليوم ، ثم إلى الجزر البريطانية ، أما البورغنديون فقد استوطنوا أجزاء من أواسط أوروبا ، أما قبائل الهون فقد كانت شرسة للغاية اجتاحت المنطقة وكأنها المحرك لتوزيع هذه القبائل هربا من البطش والرعب الذي نشروه بين الناس بما ارتكبوه من فظائع ، وليس انتشار هذه القبائل السبب الوحيد للتغيير الجديد في أوروبا بل إن انخراط أعداد من أفراد هذه القبائل في الجيش الروماني سبب آخر إذ وصل بعض أفرادهم إلى أعلى المناصب في السلطة حتى تمكن أحد قادتهم وهو الملك أودوا كر زعيم القوط الشرقيين من إسقاط الإمبراطورية إلى الأبد وإعلان نفسه ملكا على إيطاليا [1]. ما إن انتهت الإمبراطورية حتى دخلت القارة الأوروبية منعطفا جديدا ، إذ إن الجناح الغربي للإمبراطورية الرومانية قد زال من على الخريطة ، في حين بقيت الإمبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) تتحين الفرصة لاستعادة وحدة أراضي الإمبراطورية وذلك ما سوف تفعله في المستقبل زمن الإمبراطور البيزنطي (جستنيان) الذي سيجد أمما مختلفة يمكن

(١) أوروبا العصور الوسطى . الجزء الأول . . د . سعيد عبد الفتاح عاشور . الطبعة الثامنة . مكتبة لأنجلو المصرية . ص .٩٤ ٠

السيطرة عليها[١]، ولكن لا يمكن الحفاظ عليها ضمن الإمبراطورية إلى أمد بعيد ، وحتى يأتي الزمان الذي يتمكن فيه الإمبراطور جستنيان من إعادة توحيد الإمبراطورية فإن القارة وخاصة في وسطها وغربها تدخل مرحلة جديدة من الصراعات بين القوى المؤثرة للسيطرة والمبادرة لمحولات تكوين دول تملأ الفراغ السياسي وذلك بضم ما يمكن ضمه من الأقاليم ، ولكن هذه المحاولات لم تكن ذات نجاح كبير لشدة الصراعات ولتدخلات الإمبراطورية البيزنطية ، إلى أن ظهر في الأفق دولة الفرنجة التي سوف تقيم أولى الدول التوحيدية على نطاق واسع من حين سقوط روما ، وقد تمكنت هذه الدولة من ضم أقاليم واسعة في أوروبا وكذلك أدخلت عدة شعوب في المسيحية الكاثوليكية بالقوة وذلك في عهد الأسرة الميروفنجية ، ثم جاءت الأسرة الكارولنجية التي من أشهر حكامها الإمبراطور شارلمان لتحافظ على الإنجازات السابقة وذلك بالإبقاء على وحدة الدولة المهددة من الداخل ، وكذلك التصدي للأخطار الخارجية كالخطر الإسلامي الذي تمكنت هذه الدولة من صده في معركة بلاط الشهداء (بواتيه) [٢].

ثم انتقلت القارة إلى طور جديد هو ظهور الدول القومية على يد أبناء الملك لوس التقي أحد ملوك هذه الأسرة الذين تقاسوا الإمبراطورية وأسسوا ما سوف يعرف فيما بعد إيطاليا – فرنسا – ألمانيا التي سوف تقوم بشن الحروب الصليبية على بلاد المسلمين[٣] ، إلى جانب مملكة الإنجليز لمدة قرنين من الزمان ، ويمكن أن يعتبر التشكل القومي

(١) ميلاد العصور الوسطى . د- سانت ، ل ب موس . ترجمة : عبدالعزيز توفيق جاويد . عالم الكتب . القاهرة . ص ١٧٠ .

(٢) تاريخ أوروبا العصور الوسطى . القسم الأول . د- أ ل فشر . ترجمة محمد مصطفى زيادة ، السيد الباز العريني . الطبعة الثالثة . دار المعارف المصرية . ص ٦٦ .

(٣) تاريخ أوروبا في العصور الوسطى . د. السيد الباز العريني . دار النهضة العربية . بيروت . لبنان . ص ٣٤٧ .

الأوروبي هو الأخير والسائد إلى اليوم مع بعض التعديلات البسيطة . أما في شرق أوروبا فقد تمكنت منه القبائل السلافية التي ربما كانت من أسباب هجرات بعض القبائل الجرمانية إلى الغرب الأوروبي والتي هي بدورها هاجرت نحو أوروبا غربا ربما هربا من القبائل التركية التي استوطنت آسيا الصغرى وما حولها من الأراضي حتى أواسط آسيا ، ومن ثم تمكنت من القضاء على الإمبراطورية البيزنطية بالاستيلاء على العاصمة القسطنطينية في الموجة التي تمخضت عنها الدولة العثمانية[1] . في حين أن القبائل السلافية لم تستطع القضاء على الإمبراطورية البيزنطية بل وقعت تحت نفوذها واعتنقت دينها ومذهبها المسيحي الأرثوذكسي مثل ما فعل الجرمان في غرب أوروبا باعتناق الكاثوليكية وكذلك الأتراك الذين اعتنقوا الإسلام ، فتكون كل مجموعة قد اعتنقت الدين السائد في المناطق التي استوطنتها ، الأمر الذي سوف تستمر على أساسه الصراعات والحروب ، فالدين هو الأكثر منطقية وإقناعا للشعوب ، وسوف يكون ذلك جليا في المستقبل حين تشن أوروبا الجرمانية الإفرنجية حروبها الصليبية على بلاد المسلمين باسم الدين الذي لا يعدو غطاء لأطماع اقتصادية وتوسعية ومستغلة في ذلك استنجاد الإمبراطورية البيزنطية المسيحية بهم من هجمات الأتراك المسلمين وذلك استمرارا لحروبهم وصراعاتهم القديمة بثوب عصري مناسب .

(١) أوروبا العصور الوسطى . الجزء الأول . . د . سعيد عبدالفتاح عاشور . الطبعة الثامنة . مكتبة لأنجلو المصرية . ص .٦٠٩ ٠

المبحث الثاني
حركة الإصلاح العالمية الكبرى

من يتأمل تاريخ البشرية الدامي يخيل إليه أن هذا الإنسان مجرد قاتل ، ومن أراد أن يجادل ويثبت ذلك من أحداث التاريخ فلن يجد عناءا كبيرا لإيجاد الدليل ، فتاريخ الأمم مليء بما يمكن أن يعتبره دليل ، ولكن هل معنى ذلك أن الإنسان شريرا لا يوجد به خير ؟ وإذا كان به خير فهل خيره أكثر من شره أم أن شره أكثر من خيره ؟ وإذا كان خيره يساوي شره فما الذي يجعل جانب يتفوق علي الأخر ؟.

نتيجة لظروف موضوعية مرت بها الإنسانية أساسها الأنانية والطمع انجرف هذا الإنسان من أولى خطواته نحو الهاوية التي لم يستطع العودة منها ، إذ ليس قتل أحد ابني آدم إلا أولها ، وهنا يوجد حقيقة ساطعة وهي أن جانب الشر كان طاغيا عند كثير من الناس لتنكب الإنسان لهدف تكليفه بعمار ة الأرض الذي من أجله خلق ، وذلك في ضوء عبادته للّه وحده على ما يرضيه ، لذا نجد أن من الواضح أن اللّه سبحانه وتعالى حين خلق آدم لم يكن يريد به إلا الخير، وإلا لماذا اختاره لعمارة الأرض والكون؟ ولذلك استخلفه في الأرض ، وهو حتماً خير أراده اللّه به .

لهذا كله زوده اللّه سبحانه وتعالى بالعقل الذي ميزه على كثير ممن خلق ، وكذلك بالإرادة الحرة التي تمكنه من اتخاذ القرارات بقوة وحرية بما تحتمله من الخطأ والصواب ، وذلك بمسئولية كاملة يترتب عليها الحساب الذي يترتب عليه بدوره الثواب والعقاب ، ولست هنا بصدد إثبات أي الجانبين يتفوق على الآخر لدى الإنسان ، إلا إنه من

اللافت للنظر بشكل جلي وعبر تاريخ الإنسانية الطويل وعبر التكوينات الحضارية مدى اعتماد الإنسان للقوة المفرطة لتحقيق أهدافه ، وذلك من جانب من يمتلك القوة الذي يمكن أن نسميه (القوى) ضد من لا يملك القوة الذي يمكن أن نسميه (الضعيف) ، هذه القوة التي امتلكها القوي فتحت له أبواب الطغيان والجبروت والظلم ففرض إرادته الظالمة والمجانبة للحق على من استضعف من الناس ، في صورة تمثل درجات عالية جداً من الشر الذي تمثل في كثير من الإرادات الطغيانية سواء كان على مستوى الأفراد أو الجماعات التي يزخر بها التاريخ الإنساني .

مما دفع بالضعيف إلى أن يتلمس أسباب القوة لرفع الظلم والحيف عن كاهله ، الأمر الذي تمكنت منه بعض الإرادات الفردية والجماعية بدافع الانتقام أو بحجة رفع الظلم مما أدخل العالم من قديمه إلى حديثه في دوامة الحروب الطاحنة التي لا تحتاج لمبررات كبيرة لتبرير تبادل الانتقام بين الجماعات الإنسانية من دون إعلان الهدف الأساسي والرئيس ، وهو امتلاك كل مقومات القوة والسطوة سواء كانت إستراتيجية أو اقتصادية أو عسكرية... إلخ ، في مقابل حرمان الآخر من ذلك بل محاولة دحره إلى مدارك الضعف والانهيار ، مما يدفع بالطرف الآخر إلى التفكير المضاد بكل اتجاهاته لامتلاك أسباب القوة بما يؤدي إلى فتح آفاق جديدة وواسعة لتضخيم دوامات الحروب ، ما حدث ويحدث يتنافى والإعلان الإلهي العظيم للملائكة حين أعلمهم أنه جل جلاله جاعل في الأرض خليفة عاقلا مكلفا ذا مسئولية عالية وله كل الإمكانيات المادية والمعنوية التي تمكنه من عمارة الأرض ، بإرادته التي يجب أن تجمح إلى الخير، وذلك بكبح عوامل

الشر ، وطرق كل سبل الخير التي أراد الله من هذا المخلوق الحر الإرادة أن يعمر الأرض على أساسها وبها يكون مستحقاً للخلافة .

وعليه فإن هذا الاستخلاف يوجب على هذا الخليفة مراعاة شرطين أساسين مهمين في الدعوة الإسلامية يمكن على أساسها تحقيق الهدف المنوط به وهى على التوالي الأول : عبادة الله وحده الذي من أجله خلق وهو المبدأ الذي جاء به الرسل جميعا ونفسه المبدأ دعا إليه محمد ﷺ وعلبه انتشرت رسالة الإسلام والذي يجب أن يقوم عليه الشرط الثاني : أي التكليف بعمارة الأرض التي أودع الله فيها كل مقومات البناء الحضاري ابتداء من صلاحية الكوكب لعيش البشرية إلى ثرواته الطبيعية وغيرها التي تعينه على بناء الحضارة على مبادئ العدل ، والحرية ، والمساواة ، والتعددية . فالإسلام يدرك أن العالم متنوع الأعراق ومتعدد الثقافات ومكون من جماعات متباينة وليس أفضل من طريقة للتعامل معها سوى الاعتراف المتبادل بينها والتفاعل الايجابي السلمي على ضوء هذه المبادئ خدمة للبشرية ، إلا إن هذه الجماعات البشرية ليست بأحسن حال من ابني آدم فكل جماعة بدأت خطوتها الأولى بالقتل ، والفرق هنا ليس كبيراً ! إذ أن الكل مارس القتل ولا أجد اختلافا إلا في الأساليب واختلاف وسائل القتل وتعددها ، فقد تزايدت وتطورت حالات القتل حتى وصلت إلى الإبادات الجماعية بل حتى إلى إبادة شعوب بأكملها وتحطيم حضارات وإنجازات بشريه سوف نأسف لفقدانها ، وليس شعوب وحضارات العالم الجديد عنكم ببعيد .

ومع ذلك فقد كان الله بعباده رحيما فقد أرسل الرسل للإصلاح ودعوة الناس إلى الطريق المستقيم ، وأكثرهم لا يؤمنون ولا يعقلون فما

يكون من حل سوى أن يعذبهم اللّه إما بالكوارث الطبيعية أو البشرية لردهم عن الظلم أو يهلكهم لعدم صلاحيتهم لبناء المستقبل ، وذلك لمنح الفرص لأقوام أخرى قد تكون أكثر رشداً ، ولكن ما إن تبدأ الطريق حتى تسرف في القتل ، وما أكثر الحضارات القائمة على السفك والقتل والطغيان سواء في الماضي أو الحاضر ، وفي الواقع أن من ينظر إلى التاريخ وتكون الحضارات يستشعر أن هذه المبادئ التي سبق ذكرها مثالية ولا يمكن تطبيقها لرغبة الكثير في عدم الالتزام بها . لذلك لا يأبه بها أولئك القادة لأنهم من المشاهدة التاريخية يرون أنها ليست أكثر من أفكار فلسفية خيالية وغير واقعية لا يؤمنون بها لذلك حاول الأنبياء والرسل نشرها بين الناس وأنه يجب الكف عن القول أنها ليس لها مكان في الواقع بين الناس لأنهم يعتقدون أنها متعبة وتحتاج إلى صبر وجهد لتطبيقها في حياتهم ، فليس الصحيح أن من أراد النجاح والسيادة بأسرع ما يمكن فما عليه إلا أن يكون عمليا وجادا وألا يترك أي وسيلة مشروعة أو غير مشروعة إلا واستفاد منها في سبيل الوصول إلى الهدف المنشود !! .

والذي بدوره يختلف من جماعة إلى جماعة أخرى ، ولكن النتيجة واحدة وهي ما نشاهده عبر تاريخ طويل من المظالم ، بلغت فيه هذه المظالم بالنسبة للعالم القديم ذروتها في ثنايا الصراع بين أعظم قوتين عند ظهور الإسلام : الفرس والروم ، ولأن الظلم والفساد قد بلغ مداه فما كان من اللّه رب العلمين إلا أن تدخل لإصلاح ما أفسده البشر وذلك بظهور دعوة الإسلام الإصلاحية الجديدة ، التي كانت سبب نجاح العرب المسلمين في فتوحهم[1] حيث إنه سبحانه وتعالى

(١) تاريخ أوروبا العصور الوسطى . القسم الأول . د . أ . ل فشر ترجمة محمد مصطفى ريادة ، السيد الباز العريني . الطبعة الثالثة . دار المعارف بمصر . ص . ٦٢ .

أذن للناس بظهور مثال جديد ومؤثر وجذاب يمكن أن يحتذى ، وهو إقامة جماعة إنسانية على المبادئ الصحيحة التي ذكرت من قبل ودون أن تبدأ بالقتل ، بل مورس ضدها وضد رسولها محمد ﷺ كل أنواع وأصناف الظلم والقتل والتعذيب والتشويش والتشويه والأذى ، دون أن تدفع هذه الجماعة لارتكاب الخطأ التاريخي الضخم الذي عانى منه الناس لإثبات وجود أي جماعة ناشئة وهو القتل ، هذه الجماعة هي الجماعة الإسلامية الأولى في المدينة المنورة بقيادة الرسول الكريم محمد ﷺ الذي قضى من عمره وعمر دعوته السلمية إلى الإسلام ومن أجل اقامت هذه الجماعة النموذج مدة ١٣ سنة في مكة المكرمة دون اللجوء للقتل أو حتى الدفاع عن النفس ، إذ إن القتال كان ممنوعا في هذه الفترة ، وذلك لتدريب أعضاء هذه الجماعة على الصبر على الأذى للوصول للهدف بلا ظلم ولتعليم الناس أنه يمكن إقامة مجتمع وحضارة على الفكر والدعوة والصبر على الأذى أي العمل السلمي لتحقيق الغاية ، وأيضا لإدراك الرسول ﷺ أن أقرب طريق للفناء هو اللجوء للقوة والقتال فالإسلام دين عالمي صالح لكل الأزمان ولجميع البشر لذلك لا ينبغي له أن يكون كغيره ، بل كان الهدف الأسمى للرسول ﷺ هو ترسيخ هذه المبادئ في نفوس الجماعة المسلمة حتى تكون نواة الكيان الوليد على مستوى الفرد والجماعة ، وأنه يجب على الفرد في هذه الجماعة أن لا يقتل ولا يقاتل حتى يكون نموذجا صالحا في الكيان النموذج ، وهنا نجد أن القتال لم يفرض على المسلمين إلا حينما أسرف أعداء جماعة المسلمين في الأذى والقتل بل بلغ بهم حد محاولة القضاء على المسلمين وقد خرجوا من ديارهم إلى المدينة المنورة هربا من الظلم وذلك بشن الحروب النظامية عليهم وذلك واضح في تاريخ السيرة النبوية ، فلم يكن هناك بدا من الدفاع عن النفس ورد الظلم

دون إسراف ، فكان لزاماً على المسلمين رد العدوان والظلم وإظهار القوة والعزة دفاعاً عن الذات لذلك شرع الله لهم قتال من يعتدي عليهم ردا للعدوان قال تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾[١] وحين تمكنت جماعة المسلمين من رد العدوان والظلم ، بل كسب موازين القوى لصالحهم عمدوا إلى تفعيل المبادئ الضخمة التي صبروا على الأذى من أجلها ولم يبادروا إلى القتل بل طبقوها حين تمكنوا من أعدائهم وكان ذلك واضحاً جلياً في فتح مكة ، فحين خضعت قريش للقصاص يوم فتح مكة المكرمة سألهم رسول الله ﷺ سؤاله الهام الجامع المستدرك للأحداث التي مرت عليه منهم قائلاً : ماذا تظنون أني فاعل بكم؟ فأجابوا بإجابة العارف المتيقن من حسن خلق الرسول الكريم ﷺ ومدى التزامه ومعه جماعته المسلمة الصابرة للمبادئ المعلنة، أجابوا أخ كريم وابن أخ كريم ، حينها الرسول محمد ﷺ المتوافق مع نفسه وعقله وفكره ومبادئه والذي لا ينتقم إذا تمكن لم يجادل ولم يقل انظروا الفرق بيننا وبينكم بل ترك لهم المقارنة بعفويتهم ، فأجابهم اذهبوا فأنتم الطلقاء ...[٢]!.

والأمثلة كثيرة ، ولكن هذا المثال واضح وقد جاهد المسلمون أنفسهم للسير على خطى الرسول الكريم ﷺ في الالتزام بما التزموا به من مبادئ في جميع فتوح المسلمين ضد الفرس والروم وما بعدهم ، وهذا واضح في رسائل الخلفاء الراشدين لقادت جيوش الفتح، وبإلقاء نظرة مسحية تاريخية لتاريخ المسلمين نجد أنه لم تكن هناك حروب إبادة أقامها المسلمون ضد شعب من الشعوب ولم يتم تهجير أي شعب

(١) سورة الحج . الآية ٣٩ .

(٢) السيرة النبوية وأخبار الخلفاء . الأمام الحافظ أبي حاتم محمد بت أحمد التميمي البستي . صححه الحافظ عزيز بك وجماعة من العلماء . ص ٣٣٧ .

من وطنه ، فما زال الأقباط في مصر والنصارى في الشام والأسبان في الأندلس.... الخ.

بل أكبر من ذلك أن المسلمين والشعوب المفتوحة انصهروا وتعاونوا وشرعوا في إقامة الحضارات الإسلامية الشاملة التي دمجت جميع تلك الشعوب لأول مرة في التاريخ في بوتقة حضارية واحدة من حدود الصين شرقاً إلى جبال البرانس وفرنسا غربا ، فقد اشتركت كل هذه الشعوب في بناء الحضارة الإسلامية[1]، إذ هي النموذج الأول لعالمية الحضارة فيما يمكن أن يكون صورتها الأولى ، وحتى في مراحل انحطاط المسلمين وتفشي الظلم عندهم فإنهم لم يبيدوا شعباً ولم يهجروه من وطنه على عكس ما حدث لشعوب لا تسمع بها إلا في غياهب التاريخ على أيدي أدعياء الحضارة قديماً وحديثاً ، وليس لأن المسلمين يختلفون عن غيرهم بل لأن الإسلام يحرم عليهم ذلك ، فالعرب قبل الإسلام كانوا كغيرهم من الشعوب يمارسون القتل لأي سبب واهي ، فبعض حروبهم استمرت لأكثر من ٤٠ سنة بسبب سباق خيول ! . والسؤال هنا : لماذا هذا الالتزام بالمبادئ عند المسلمين ؟ ولم يحدثوا إبادات بشرية ؟

وعوداً على بدء تكون الإجابة أن الله سبحانه مكن للإنسان وهداه النجدين الخير والشر ، ومنحه الإرادة والحرية ، وحمله مسؤولية الحرية وما يترتب على ذلك من الثواب والعقاب والجنة والنار ، أي أن هذه المبادئ عند المسلمين في أصل الدين الإسلامي الحنيف ، ومعنى ذلك أنها إلى جانب العبادات تدخل الجنة والنار ، فلا يحق لمؤمن بالله وحده لا شريك له أن يقتل ظلماً وعدواناً أو ينتقص من حريات الناس

(١) تاريخ أوروبا العصور الوسطى . القسم الأول . هـ- أ ل فشر ترجمه : محمد مصطفى زيادة ، السيد الباز العريني . الطبعة الثالثة . دار المعارف بمصر . ص . ٦٤ .

أو يقيم التفرقة بين الناس فهم سواء بكل أطيافهم ومشاربهم عباداً للّه ، وقد عد الإسلام مخالف هذه المبادئ مذنباً وعاصياً وهي معاصي حذر الإسلام عامة المسلمين وخاصتهم منها .

إن الحياة الدنيا عند المسلمين وفي دين الإسلام ليست منفصلة عن الآخرة ، إذ إن ارتكاب ذنب أو جريمة صغيرة أو كبيرة لا تسقط بالتقادم ، فالمرء محاسب على كل عمل عمله صغيراً كان أو كبيرا ، له الثواب على الحسنى والعقاب على الأخرى ، فلو أراد أحد ارتكاب جرم ما وهو يعلم يقيناً أنه لن يلاحق من السلطات وحدث أنه نجا من هذه الملاحقة فإنه لن ينجو من الملاحقة حتى بعد الممات ، وهنا أهمية ما يمكن أن نسميه تفعيل الضمير الإنساني عند المسلمين ، وذلك على وجهين : الوجه الأول الشعور بالمسئولية الأخلاقية الإنسانية وهو ما زال في الإطار الدنيوي أي قبل الممات ، في حين أن الوجه الثاني هو تفعيل الشعور بالخوف من عذاب اللّه سبحانه على ارتكاب الجرم و استشعار الثواب العظيم من اللّه سبحانه إن ترك السوء رجاء رضا اللّه وثوابه ومخافة عقابه ، فتكون حياة الإنسان وحدة متكاملة في جميع مراحلها الدنيوية والأخروية ، فلا انفصام في الإسلام بين الدنيا والآخرة ، فالآخرة هي ثمرة الدنيا بعمل الإنسان وبرحمة اللّه يدخل الجنة ، وهذا ما أهيب به المسلمين بأن يعيدوا النظر فيما هم فيه من انفصام بين دنياهم وأخراهم وذلك في جميع تعاملاتهم الخاصة والعامة بجميع مكوناتهم الاجتماعية من السلطان إلى العامل البسيط ، وحري بهم أن يمعنوا التفكير في إعادة بناء نمط حياتهم على هذا المبدأ الذي فيه رضا اللّه وثوابه وفيه سخطه وعقابه وفيه إبراز وجه حضاري عظيم في الإسلام ناهيك عن تبوءهم مكانتهم التي تليق بهم .

المبحث الثالث
بين ضفتي البحر المتوسط

لقد فكرت كثيراً قبل كتابة هذا الفصل لما أجد له من أهمية كبيرة ، حيث إن هذه الأهمية تكمن في أن أحداث هذا الفصل ستشمل الفصل الأهم في حركة التاريخ في هذه الفترة التي تسمى العصور الوسطى ، حيث إنه سيكون لها ما بعدها من الأحداث في العصور الحديثة ، خاصة من قبل الطرف الأهم والأقوى تأثيرا على سير الأحداث فيما بعد في العصور الحديثة الذي هو الجانب الشمالي للبحر المتوسط ، أو بصورة أوضح أوروبا الغربية المتحفزة في صورة جديدة من المد الطاغي على ما سواه في طفرة توسعية أعظم من سابقتها في العصور البربرية التي على إثرها انهارت الإمبراطورية الرومانية الغربية . إذ كان من نتائج هذه الطفرة الجديدة اجتياح العالم في حركة استعمارية استيطانية شاملة كانت وبالاً على كثير من الشعوب في العالم ، حيث كانت ذروتها في الإبادة الجماعية لسكان قارات وجزر العالم التي تسمى العالم الجديد أو المكتشف .

وهنا أجدني ألاحظ أن التيارين اللذين هما عماد حركة التاريخ في العصور الوسطى قد ظهرا على مسرح الأحداث في أوقات متقاربة وفي فترة تاريخية واحدة تقريبا وهي نهاية العصور القديمة وبداية العصور الوسطى ، وقد كان لهذين التيارين فرصة إنهاء آخر إمبراطوريات العصور القديمة حيث أن التيار الشمالي الأوروبي تاريخياً قد تمكن من إسقاط الإمبراطورية الرومانية الغربية بل وورثها وراثة كاملة ، أما

التيار الجنوبي وهو العربي الإسلامي فقد كان له إنهاء إمبراطوريات العصور القديمة في الشرق وذلك بالقضاء على إمبراطورية الفرس ووراثتها وتحجيم الإمبراطورية الرومانية الشرقية (بيزنطة) ووراثة معظم الأراضي التي كانت تحت سيطرتها في كل من آسيا وإفريقيا ، البلاد العربية اليوم والأندلس[1].

فيكونان الطرفين هما بداية العصور الوسطى ، وبظهورهما تبدأ مرحلة جديدة في التاريخ تسمى العصور الوسطى ، ولا أجد لي بداً من المقارنة بين الجانبين لكي نفهم ماذا يجرى؟ وماذا كان يجب أن يفعل كل جانب؟

ففي بادئ الأمر أن لا عداوات ولا مشاكل ولا صراعات ولا تنافس بين الطرفين ، إذ إن كل من الجانبين كانا يسيران في خطين متوازيين من الشرق إلى الغرب في محاذاة البحر المتوسط من جنوبه ومن شماله إلى المحيط الأطلسي ، بدون اهتمام من أحد بالآخر أو حتى معرفة لبعضهما ، لأن الظروف لم تكن تسمح بهذا الاهتمام في كل مناحي الحياة فمن حيث الجغرافيا فلا سبيل للاحتكاك لبعد المسافة ولطبيعة الأرض التي يسير باتجاهها كل طرف ولا حتى في طريقة الحياة ولا في فكرة الخروج التي على ضوءها خرج كل طرف ، والذي على ضوئها تشكل الهدف لكل طرف على جانبي المتوسط .

فقد كانت الهجرات الجرمانية البربرية التي اجتاحت أوروبا كسابقاتها من الهجرات التي كونت الإمبراطوريات العظيمة في

(١) تاريخ أوروبا العصور الوسطى . القسم الأول . هـ أ ل فشر . ترجمة : محمد مصطفى زيادة ، السيد الباز العريني . الطبعة الثالثة . دار المعارف المصرية . ص ٦٠ .

العصور القديمة وكذلك كلاحقاتها التي سوف يكون لها شأن وأثر كبير في التشكيل الحضاري فيما بعد في فترات لاحقة من تاريخ العصور الوسطى وما بعدها ، فقد كانت تمارس الغزو والسلب والنهب والتدمير ، إذ هو المحرك الرئيسي لهذه الهجرات التي تدفع بعضها بعضاً ، فقد كانت هذه القبائل الرعوية تمارس الفروسية والحروب الطاحنة بينها كعمل أساسي إلى جانب الرعي ، مما جعلها تتمرس القتال وتبرع فيه الأمر الذي أتاح لها الاستيلاء على الشعوب الحضارية التي أمامها في الإمبراطورية الرومانية الغربية عبر قرون من استيطان هذه القبائل لأراضي الإمبراطورية الرومانية الغربية في أوروبا ، فقد غيروا طبيعة هذه الأرض السكانية في صورة جديدة مناقضة لما كانت عليه ، فأهملت الحضارة وانهارت التجارة التي تعتبر في غاية التطور في ذلك العصر حتى وصول هذه الهجرات وتمكنها من المنطقة التي طبعتها بطباعها البدوي الرعوي المناقض لمظاهر الحاضرة من تجارة وصناعة وعمران وزراعة ، وهذا ليس عيباً إذ أن هذه إمكانيات تلك الشعوب في هذه الفترة ، فهي بهذا التمكن سوف تستفيد مع الوقت من الحضارة الرومانية الموروثة وكذلك سوف تتصل بالحضارات الأخرى ولا سيما الحضارة الإسلامية ، لتخرج في النهاية ولو بعد قرون في شكل حضاري جديد و مختلف عما كان سائدا ، فهي بعد هذا التمكن في أمس الحاجة للوقت للانطواء والعزلة للتشكل والتبلور ، وهذا ما حدث فقد كانوا لا يأبهون بما يدور من حولهم من تحولات عالمية ، إذ إنه ليس بإمكانهم التفاعل مع الأحداث ولا يعنيهم لتنوع قبائلهم وتفرقها ، وأيضا لانشغالهم بالاستيطان فقد كان جل اهتمامهم ، فلم يقطع هذا الانطواء لفترة وجيزة إلا المد الإسلامي الذي أوقف في معركة (يواتيه)

بلاط الشهداء خوفا من الوقوع تحت سطوته ، كل ما في الأمر أنهم استطاعوا الانتشار في أوروبا نتيجة التدافع الحاصل بين تلك الشعوب حيث وصل القوط الغربيون إلى الجزيرة الأيبيرية ومن وراءهم الشعوب السلافية في شرق أوروبا دون إلقاء بال بالسواحل والبحار وما يدور فيها وما رواءها من الأحداث[١] .

غير انه من الملاحظ أنهم تفاعلوا مع بعض مظاهر الحضارة الرومانية من مثل الألقاب الإمبراطورية وشاراتها وبعض قوانينها وذلك لحاجتهم الآنية لها ، في حين أنهم أهملوا مظاهر الحضارة الأخرى كما سبق إلا أنهم كانوا أرضا خصبة لانتشار المسيحية الكاثوليكية ، إذ إن دينهم الوثني أضعف بكثير من مقاومة المسيحية ، وأيضا لإجبارهم على اعتناقها من قبل ملوكهم المتعاونين باباوات الكنيسة .

أيضا نلاحظ أنهم طبعوا أوروبا بطابعهم البشري الصرف فقد اندثرت الشعوب السابقة بطريقة أو أخرى وربما كان القتل أو الاندماج أو حتى الإدماج وربما الإبادة الوسيلة الأولى لذلك ، فقد اشتكى رجل الدين الروماني جيروم من بربريتهم فقال (كان المؤمنون يقتلون في الكنائس وكانت الأرامل والقديسات والعذارى ممن وهبن أنفسهن للسيد المسيح في جملة الغنائم التي سلبتها هذه الوحوش المفترسة ...)[٢]، ويصدق على ذلك ويصدقه استيطانهم العالم الجديد في العصور الحديثة ، حيث كانت إبادة الشعوب من الخصال التي استمرت فيهم على مدى التاريخ مع الأسف رغم ترقيهم مراتب المدنية والحضارة .

(١) أوروبا العصور الوسطى . الجزء الأول . د . سعيد عبدالفتاح عاشور . الطبعة الثامنة . مكتبة الأنجلو المصرية . ص ٦٠٨ .

(٢) تاريخ العصر الوسيط في أوروبة . الجزء الأول . د. نور الدين حاطوم . ص . ٢١ .

في مقابل ذلك خرج التيار الآخر العرب المسلمون من الجزيرة العربية في اتجاهين مختلفين نحو الإمبراطوريتين الكبيرتين (الفارسية) في الشرق و (الرومانية البيزنطية) في الغرب اللتين تمثلان نهاية العصور القديمة وأخر الإمبراطوريات القديمة ، ومرة أخرى دون أن يدور في خلد أحد من الطرفين العداء للطرف الأخر ، ودون علم بحركته وما سيؤول إليه الأمر فيما بعد ، فقد كان ظرف هذا الطرف مختلفاً عن ظرف الطرف الآخر بالكلية ، فقد كانت جيوش الفتوحات العربية الإسلامية تقاتل جيوش نظامية جائرة في معارك فاصلة كانت تدور على أرضية مختلفة شاسعة في مساحتها ومتنوعة في أقاليمها تفوح بعبق التاريخ والحضارة زاخرة بشعوب كثيرة وعريقة ، نفسه التيار تيار العرب المسلمين أصيل في المنطقة وحضاراتها ، فهو يملك إرثا حضاريا عريقا وقديما قدم الحضارة في المنطقة ، ولم يمثل حركة تمدد بشري طاغ حدث لظروف قاهرة كالذي حدث في شمال البحر المتوسط أو أوروبا نتيجة الحروب والمجاعات والهجرات البشرية الكبرى ، بل نتيجة لفكرة عظيمة هي ظهور الإسلام الحنيف الذي أنزله الله سبحانه وتعالى على رسوله الكريم محمد ﷺ رحمة للناس ليخرجهم من عبادة غير الله إلى عبادة الله وحده [(١)]، وأيضا الدعوة لنشر مبادئ معينة لصالح البشرية من أجل إصلاح أوضاعها وإنقاذها من براثن الشرك والظلم الذي عم العالم ولفترات طويلة ، والتي يمكن أن أزعم أنها كانت ترتكبه منذ بدايات ظهور التكوينات

(١) تاريخ أوروبا العصور الوسطى . القسم الأول . هـ أ ل فشر .ترجمة : محمد نصطفى زيادة ، السيد الباز العريني . الطبعة . الثالثة . دار المعارف المصرية . ص . ٦٣ .

البشرية الأولى والتي استمرت في أشكال متعددة ومختلفة باختلاف الدول والحضارات ، فقد كان الظلم والقتل والإبادات هي القاسم المشترك بين تلك الإمبراطوريات والحضارات ، حيث إن القائمين على تلك الإمبراطوريات لا يملكون مقومات العدل والمساواة والرحمة إلا في حدودها الدنيا ، فكم من الأمم والشعوب والحضارات التي بادت والسبب في ذلك هي الحروب والفتوح الجائرة ، وهنا حقيقة وهي أن تبادل الظلم شائع بين جميع شعوب التكوينات البشرية الكبرى وعلى معظم ساحة الميدان الحضاري لقارات العالم القديم ، والذي للأسف استمر في العصور اللاحقة مع بلوغ الإنسان مبلغاً في سلم الحضارة المادية فقط .

والحاصل أن مبادئ الإسلام السهلة والسمحة التي تدعو إلى الحرية والعدالة والرحمة واحترام الحياة وتأمين الناس على أرواحهم وممتلكاتهم والحكم فيهم بالعدل بما أنزل الله قد استهوت تلك الشعوب ، مما أتاح للمسلمين الذين خرجوا بدعوة الإسلام فتح تلك البلدان وتوحيدها وتوحيد شعوبها بأديانها وثقافتها ومصالحها في حضارة واحدة بيسر وسهولة ، أتاحت للمرء التنقل في بلاد واسعة حدودها من بلاد الصين شرقاً حتى المحيط الأطلسي غرباً بحرية وسهولة ، مما مهد لظهور ما سوف يعرف لاحقا بالحضارة الإسلامية التي سوف تسود الفترة العظمى من زمن العصور الوسطى .

هذه الأخلاق الإسلامية العظيمة سهلت على المسلمين فتح البلدان حتى كان لهم فتح بلاد الأندلس في جنوب أوروبا في وقت وجيز ، حيث إن هذا الفتح الإسلامي حدث نتيجة وصول الفاتحين المسلمين إلى

– الحاجز الطبيعي – حاجز المحيط الأطلسي بحر الظلمات الذي كان لا يعرف ما بعده ، فكان من قوة المد والدفع الإسلامي الكبير أن انحنى نحو الشمال عبر البحر المتوسط عند مضيق جبل طارق ، فكان له فتح الأندلس في يسر وسهولة وبأعداد وعدد قليلة مقابل أعداد ضخمة من الجنود وتجهيزات كبيرة للجيش المقابل ، وهنا لابد أن أشير إلى أن هذا النصر كان نتيجة عدل ورحمة المسلمين التي كانت تفتح قلوب الشعوب قبل بلدانها ، فليس في قاموس المسلمين سياسة الأرض المحروقة ، فلم يحدث استئصالا للشعب الأسباني الذي ظل تحت الحكم الإسلامي قرابة ثمانية قرون ، وهذا لا يعني أن العرب المسلمين الفاتحين يختلفون في بشريتهم عن الشعوب الأخرى ، بل لأن الإسلام يحرم على المسلم القتل خارج ميادين القتال قال تعالى ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾[1]، ويحرم سياسة الأرض المحروقة التي ربما خالفها بعض السلميين في بعض العصور أحيانا . وهنا نصل إلى أول احتكاك مباشر بين الطرفين أو الجانبين ، فالفترة التاريخية الواقعة بين سقوط روما عام ٤٧٦م على يد الجرمان البرابرة وبين فتح الأندلس عام ٧١١م على يد المسلمين لم يكن فيها أي احتكاك ذا معنى بين الطرفين ، هذا مع العلم أن الطرف الأوروبي غير موحد ، فلم يكن هذا الاحتكاك الإسلامي إلا مع القوط الغربيين في أيبيريا فقط والذي نتج عنه فيما بعد نتاج ايجابي هو الحضارة الإسلامية في الأندلس أي أنه مكسبا اسبانيا ، ثم تبعه بعد ذلك معركة بلاط الشهداء (بواتيه) سمة ٧٤٠م مع الدولة الميروفنجية الإفرنجية التي على إثرها توقف المد الإسلامي في أوروبا . ومع ذلك كان

(١) سورة البقرة . آية ١٩٠ .

هذا الاحتكاك هادئا وحضاريا إلا أنه أول احتكاك إسلامي إفرنجي ، فقد كانت معركة بلاط الشهداء من العلامات الدالة على أن المسلمين كانوا في نهاية اندفاعهم إذ وصل هذا المد مداه ، وأن الفرنجة منهمكين في الداخل وتعاملوا مع الواقع فقد توقفت الفتوح الإسلامية ، وفي الأندلس تعايش وفرص متاحة للجميع وإقامة حضارة إسلامية عظيمة كان عمادها جميع شعوب الدولة الإسلامية الأندلسية ، فقد أتيحت لكل طائفة من طوائف الدولة الإسلامية الأندلسية جميع مقومات البقاء دينياً واجتماعياً وإنسانيا ، كذلك المشاركة الفعالة في البناء الحضاري الأندلسي الذي سوف يكون له بالغ الأثر على الحضارة الأوروبية الحديثة والتي للأسف لم تستفد منه إلا في المجال المادي فقط ، وهنا أجد أن الحضارة الأوروبية وهي تمجد مظاهر القوة بطريقة مفرطة لم تستفد من مظاهر التسامح والعدل في الحضارة الإسلامية في خضم هذا الاحتكاك . إذ لا أجد له أثرا كبيرا على سلوكيات الأوربيون وسياساتهم ، فقد تجلى ذلك في حركة الاسترداد الأسبانية ضد العرب المسلمين ، وكذلك في حركة الكشوف الجغرافية لقارات العالم الجديد.

ثم يأتي الاحتكاك الثاني الذي سوف يكون المبادر به التيار الأوروبي الشمالي لضفة البحر المتوسط في حركة الحروب الصليبية (الإفرنجية) المقيتة ، والتي دارت رحاها هذه المرة ليس على أرض أوروبية بل غزوات أوروبية على بلاد المسلمين قامت بها أوروبا ممثلة في دولها القومية التي تكونت كتطورات متتالية لحراك تلك القبائل الجرمانية التي اجتاحت أوروبا الغربية في نهايات الإمبراطورية الرومانية الغربية.

فقد استجابت أوروبا لدعوات من البابا أوربان الثاني لغزو بلاد المسلمين تحت شعار ديني هو تحرير الأراضي المقدسة في فلسطين من

حكم المسلمين [1] ، في حركة استيطانية جديدة لها مقوم عقائدي جديد لم يكن موجودا عند الأوروبيين من قبل ناتجا عن تحولهم من الديانات الوثنية إلى المسيحية الكاثوليكية وذلك في سنة ١٠٩٩م في أولى حملاتهم الحربية السبع عبر القرنين اللاحقين ، وبدخولهم بلاد المسلمين قاموا بأبشع المذابح وأفظعها ضد المسلمين في بلاد الشام ، حيث قتلوا عشرات الآلاف وهدموا ودمروا واعتدوا على حرمات الأماكن المقدسة للمسلمين وغير المسلمين في الشام إلى جانب هتك الأعراض ، فقد ضربوا العالم الإسلامي بكل ما أوتوا من قوة خلال قرنين من الزمان بهذه الحملات الحربية الصليبية في تمادي عجيب في هدم مقومات الحضارة ، ولم يحترموا شعوب البلاد التي غزوها فقد كان الرجل يسير بين أشلاء ودم المسلمين العزل المستجيرين في المسجد الأقصى الذي أمعنوا في انتهاكه إلى ركبتيه[2]، وإذلالاً للمسلمين قاموا بتحويله إلى إسطبل للخيول في استصناع عجيب للعدو ، أسفر عن خوف وتوجس عند المسلمين من المسيحيين أو الفرنجة أو التيار الشمالي الأوروبي للضفة المتوسطية الشمالية ، وقد ذهل المسلمون من هول الصدمة التي أخذتهم حيث احتاجوا وقتا ليس بالقصير للخروج من ذلك الذهول كي يتمكنوا من القيام بحركة مضادة يمكن أن تسمى حركة المقاومة الإسلامية المناهضة للظلم الاستيطاني الصليبي الأوروبي البربري الذي كلف المسلمين نحو القرنين من الزمان حتى تمكن المسلمون من دحر هذا العدوان الغير مبرر إلا بالعقلية التوسعية الاستيطانية عند

(١) أوروبا في العصور الوسطى . الجزء الأول . د. سعيد عبدالفتاح عاشور . الطبعة الثامنة . مكتبة الأنجلو المصرية . ص ٤٣٩ .

(٢) الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية . الجزء الأول . د. حامد غنيم أبو سعيد . ص ١٥٠ .

هذه الشعوب وخاصة قياداتها ، من دون أن يكون لها ضوابط إنسانية أو أخلاقية وحتى دينية ، فقد أقيمت الحروب الصليبية تحت شعار الدين وهو منها براء . والآن ماذا عن استزراع هذه القوى الأوروبية للكيان الإسرائيلي في الأرض المقدسة ؟ هل فقدت الأرض المقدسة قدسيتها ؟

وبالمقارنة نجد الفرق شاسعا بين الاحتكاك الأول الذي بادر به الطرف الجنوبي الإسلامي والاحتكاك الثاني الذي بادر به الطرف الشمالي الأوروبي ، إذ إن كلا من الطرفين قد تصرف بعقلية مختلفة ومبادئ متباينة ، فالاحتكاك الأول خرج برسالة إنسانية محبة الخير للجميع ، داعيا لمبادئ التعاون والتسامح والعدالة واحترام كيان الإنسان بغض النظر عن جنسه و دينه فلا إكراه في الدين في الإسلام ، وعليه نلاحظ أن الفترة مابين سقوط روما سنة ٤٧٦م وخروج أول حملة صليبية سنة ١٠٩٩م كان هناك أكثر من ستة قرون ليس بين المسلمين وأوروبا الإفرنجية ما يمكن أن نسميه عداءا ، بل يمكن القول أن العلاقة بين الطرفين عادية مثل ماهو سائد في تلك الأزمنة بين أمم العالم آنذاك ، بل أن احتكاك المسلمين بأمم أخرى كالهند والصين أعمق مما حصل بين المسلمين وأوروبا ، ولم يكن هناك ذلك العداء من قبلهم كهذا العداء الأوروبي والغربي عموما تجاه المسلمين ، فقد تزامن أن دخل المسلمون بلدان الهند والصين فاتحين في زمن فتح بلاد الأندلس في زمن الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك[١] . وهنا نخلص إلى أن لدينا أكثر من ٦٠٠ سنة ليس فيها بين الطرفين عداء ذو بال!!! ربما هناك وحشة . ولكن ليست بين الطرفين فقط بل بين شعوب العالم آنذاك جميعها . فأين العداء إذا ؟ ومتى حدث ؟

(١) تاريخ الأمم الإسلامية – الدولة الأموية . تأليف : المرحوم الشيخ محمد الخضري بك . تقديم ومراجعة . د. أحمد حطيط . الجزء الأول . دار الفكر اللبناني . بيروت . ص . ٢٨٩ .

الإجابة تكمن بعد سنة ١٠٩٧م حين بادر الطرف الغربي الأوروبي بالفعل إلى إشعال الحروب الصليبية وذلك حين خرجوا من بلدانهم لغزو بلاد المسلمين فارتكبوا أبشع صور القتل والهدم والتدمير تحت شعار الدين هذه المرة ، وذلك بنفس الطريقة التي اجتاحوا بها الإمبراطورية الرومانية حين كانوا وثنيين ، وكذلك في مثل محاولات ملوك الإمبراطوريتين الميروفنجية والكارولنجية لتوحيد تلك القبائل على المذهب الكاثوليكي بالقوة بمباركة من باباوات الكنيسة ، وهى هي نفسها الطريقة التي استخدموها في حركتي الكشوف الجغرافية لقارات العالم الجديد التي لم تغزو أوروبا من قبل بل لم تسمع بها أصلا ، فماذا عن نشر المستعمر الأوروبي للحضارة بين شعوب العالم المتخلف ؟!! فلم يكن العالم متخلفا ولم ينشر المستعمر التمدن والحضارة ، بل على العكس من ذلك فما حصل هو استعمار بلدانهم ونهب ثرواتهم بصورة متكررة لا تسمح بتلاقي حضاري حقيقي يتيح الفرصة لظهور حضارة إنسانية عالمية تقوم على تلاقي أبناء البشر بصورة عادلة ومتساوية ، وتتيح تعددية حضارية تسمح بالتنافس السلمي الشريف من خلال الحضارة الإنسانية القائمة على التعارف بين شعوب الأرض التي قضت آلاف السنين في الحروب والصراعات وتوارث الحضارات بالقوة ، والذي ما زال مستمراً في الحضارة الأوروبية الغربية فهي ورثة الحضارة من غيرها من الحضارات السابقة ، وهي في محاولة مستميتة للاحتفاظ بها دون غيرها من الشعوب وإن كانت تسميها حضارة عالمية ، ورغم إنجازاتها العظيمة في الميدان المادي واستفادة العالم منها إلا أنها ما زالت حضارة أوروبية وإن أعلنت عالميتها وهي في حالة وجل من أن ترثها أمة أخرى أو تنافسها .

وهنا حقيقة تتضح معالمها مع مرور الزمن يسندها التطور التاريخي للحضارة ، وهـي أن الإنسانية تتجه نحو التوحد والبناء الحضاري الواحد الذي تدعو إليه الدعوة المحمدية التي انتشرت في الأرض داعية للمبادئ الحضارية المستقيمة القائمة على العدل والتسامح والحرية واحترام الحقوق والتعاون والتعارف بين الشعوب الذي قامت عليه الحضارة الإسلامية ، والذي سوف يؤدي في النهاية إلى إقامة الحضارة الإنسانية المنتظرة والحتمية ، فلم يعد متاحا للأجناس والأمم توارث الحضارة أو باستحواذ جنس عليها دون أخر ، وبما أن الحضارة الأوروبية الغربية وريثة الحضارة في هذا العصر ، فإن لها فرصة كبيرة أن تضيف إلى إنجازاتها عولمة الحضارة بطريقة صحيحة وحقيقية تتيح المجال أمام جميع التكوينات البشرية الكبرى بثقافتها وديانتها لإقامة حضارة عالمية حقيقية تعددية أثنية ، وذلك في أثنية حضارية عالمية تكون للحضارة الأوروبيـة الغربية مزية إتاحة هذه الفرصة ، وأعتقد بأن القائمين على هذه الحضارة يتمتعون بدرجة عالية من الذكاء بأن لا يتركوا مثل هذه الفرصة لغيرهم ، فالحضارة مازالت في بداياتها ، والحضارة الإثنية العالمية التي ينتمي إليها العالم ويفخر بالانتماء لها لم تبدأ أو في بداياتها .

المبحث الرابع
مرحلة الغطرسة الغربية

في حين كان المد العثماني الهائل يضرب أوروبا كانت أوروبا الغربية نفسها تهضم وتستوعب المفاهيم الحضارية القديمة التي اطلعت عليها نتيجة تماسها الحضاري مع المسلمين ، وذلك منذ الحروب الصليبية التي شنتها أوروبا على بلاد الشرق الإسلامي ، وكذلك عن طريق الاتصال الهادئ بالحضارة الإسلامية في الأندلس وجزيرة صقلية ، فقد كانت الحضارة الإسلامية بدورها حلقة الوصل بين الحضارات القديمة - اليونانية والهندية والفارسية - وبين ما سوف يكون في المستقبل الحضارة الأوروبية الغربية الحديثة ، فقد تمكن الأوروبيون من الاستفادة من العلوم المتقدمة عند المسلمين وخاصة الجغرافيا والخرائط وتطويرها لمفاهيم الناس عن الكوكب بما يخدم تطلعاتهم وأهدافهم واستراتيجياتهم للخروج من المأزق الكبير والهائل الذي وضعتهم فيه الدولة العثمانية[1]، حيث حوصروا بين حدود الإمبراطورية العثمانية التي تتسع باطراد مدعومة بقوة دفع هائلة نتيجة القوة الكبيرة التي كانت تتمتع بها ، وبين سواحل المحيط الأطلسي الغربية ، هذا المحيط الهائل الذي يعد عالماً مجهولاً بالنسبة للعالم في تلك العصور والذي كان يسمى (بحر الظلمات) لشدة جهل الناس به ، مما جعل أوروبا تعاني من الحصار من جميع الجهات في جميع مناحي الحياة الأمر الذي أدى إلى كساد الحركة التجارية مع بلاد الشرق التي كانت تعتبر أراضي المسلمين بزعامة (الدولة العثمانية) .

(١) الموجز في تاريخ الكشف الجغرافي . أ . د. عبدالعزيز طريح شرف . مؤسسة الثقافة الجامعية . الإسكندرية . ص ١٣٢ .

كل هذا دفع الأوربيين لمحاولة الخروج من الحصار بالمغامرة في عالم المحيط الأطلسي المجهول ، وذلك بسير كريستوفر كولومبس نحو الغرب للوصول إلى الشرق إلى بلاد التوابل[1]، وذلك نتيجة أخذ أوروبا بنظرية كروية الأرض التي كانت مرفوضة عندهم بشكل واسع ، والحقيقة أنه لا مخرج لأوروبا من الحصار إلا بعبور المحيط الأطلسي غربا ، فقد رمت أوروبا بثقلها السياسي والاقتصادي مدعوماً بالثقل الديني وراء هذا الهدف ، مما نتج عنه باختصار ما سوف يسمى فيما بعد بحركة الكشوف الجغرافية التي على إثرها لم تفك أوروبا الحصار فقط ، بل قلبت الحصار إلى آفاق واسعة وجديدة لم تكن في الحسبان ، وتحول الحصار والكساد التجاري إلى حركة تجارية هائلة فتحت ثروات الدنيا عليها ، إذ إن أوروبا الغربية الصغيرة القليلة الموارد توسعت إلى ثلاث قارات فيما يسمى العالم الجديد وآلاف الجزر المتنوعة في المحيطات وتحول الحصار من حصار أوروبا إلى فرض الحصار على بلاد المسلمين ، بل أفضى إلى الاستعمار فيما بعد حيث كان من أهداف حملات الكشوف الجغرافيا بين قوسين حصار المسلمين من الشرق .

بعد الكشوف الجغرافية تغيرت النظرة الأوروبية للعالم ، فقد زادت ثقة الإنسان الأوروبي بنفسه إلى درجة الطغيان والغطرسة ولا سيّما القيادات ، وخاصة حين انفتحت أمامهم الآفاق وزادت عندهم الثروات وتراكمت لديهم المعارف وأخذوا بإنتاج الحضارة التي يعيشها

---

(١) أوروبا في العصور الوسطى . الجزء الأول . د . سعيد عبدالفتاح عاشور . الطبعة الثامنة . مكتبة لأنجلو المصرية . ص . ٥٧٢ .

العالم اليوم ، وذلك في مقابل عالم متهالك ضعيف يخرج من الحضارة إن لم يكن قد خرج من قبل في جميع أنحاء العالم القديم والجديد ، هذه الثقة الكبيرة بالنفس عند الأوروبي لم يكن يصاحبها في الحقيقة ضوابط أخلاقية أصيلة ذات وزن يمارسها الأوروبي في حياته اليومية تحثه على احترام الآخر ، بل وصل به الحال في فترة من الزمن أن وصف بعض أجناس البشر بالدونية والحيوانية ، وتعامل بالحقد والكراهية مع شعوب وعوالم أخرى مثل ما فعل مع المسلمين ، وبالإبادة الجماعية مع صنف ثالث من شعوب وحضارات عالمية لم يكن هناك ما يستدعي تلك الإبادات كما فعل مع شعوب الأمريكتين وأستراليا وكثير من الجزر ، فقد أبيدت شعوب بأكملها من على وجه الأرض ، وما الهنود الحمر في أمريكا عنكم ببعيد ، وأين حضارات أمريكا الوسطى مثل حضارات كالأزتك مثلا ، فلم يسلم شعب ولا حضارة ولا أمة في العالم من طغيان وغطرسة الغرب ممثلاً في أوروبا ، حيث تعرض العالم لويلات كبيرة لم يسبق لها مثيل في التاريخ وذلك من قبيل حركة الاستعمار ، فقد تنافست القوى العظمى الأوروبية على أي منها يمكن أن يكون لها النصيب الأكبر في السيطرة على أقصى ما يمكن السيطرة عليه من العالم ، وذلك من أول التنافس الأسباني البرتغالي إلى التنافس الإنجليزي الفرنسي ، ناهيك عن الهولندي والألماني وحتى البلجيكي تلك الدولة الصغيرة ، فعاثوا في الأرض الفساد والقتل والتدمير ونهب ثروات الشعوب وإفقارها ، بل والعمل الصريح والمنظم لمنع تلك الشعوب من الأخذ بزمام الحضارة والرقي والتقدم الذي يكفل لها التحرر من هذا الطغيان .

ولم يقتصر الأمر على نهب ثروات الشعوب وتحطيمها وإسقاط حضاراتها العريقة ، بل وصل بهم أن استغلوا الشعوب (بني الإنسان) أسوأ استغلال في صورة بشعة تعد وصمة عار سوداء في جبين الإنسانية وذلك باستعباد الناس والتجارة بهم ، حيث تم نقل أعدادا هائلة من شعوب أفريقيا الأحرار واستعبادهم بالقوة ومن ثم نقلهم قصراً إلى العالم الجديد للعمل سخرة في مزارع البيض في تلك القارات البعيدة التي أفرغت أصلا من أهلها الأصليين ، ليست هذه الفظائع فقط ، وإنما أذكر ببشاعة أخرى لا تقل عنها ولا أزيد من سرد الوقائع وهي: الاتجار بحياة الناس في بلدانهم وذلك بفرض تجارة المخدرات ونشرها بين الشعوب لاستغلالها لتكون أسواقا لهذه التجارة السوداء التي لا يمكن أن يفخر بها شعب عريق وحضاري كالشعب البريطاني الذي أعلن قادته الحرب على الصين لفتح أسواقها لهذه التجارة ، في حرب كبيرة صارت تعرف فيما بعد في التاريخ (بحرب الأفيون)[1] نسبة إلى مادة المخدر الذي كانت تتاجر به بريطانيا مع الشعب الصيني لإجباره على استهلاك هذه المادة .

وهنا ملاحظة هامة جداً سوف نجدها دائماً حين نتأمل أحداثا تفصيلية أخرى ، وهي أن الحضارة الحديثة ممثلة في الحضارة الغربية فصلت بين المادي والأخلاقي ، فلم تأخذ من الحضارات السابقة سوى العلوم المادية ، وحتى الفلسفة لم تأخذ منها إلا ما يخدم التطور المادي ، وهذا ما يفسر هذا الزخم الحضاري المادي الهائل الذي في مقابله تدهور أخلاقي حضاري في التعامل مع الشعوب الأخرى ، حيث أنه

(١) مولد الصين الشعبية من حرب الأفيون إلى التحرير . أ .١. ابشتاين .ترجمة حسني تمام .ص ٧ .

أسقط العامل الإنساني وفي أحسن الأحوال أهمله ، وقد ذكرت نماذج لهذه الأخلاق في التعامل مع الشعوب المغلوبة . وهذا مع الأسف موجود في التاريخ الأوروبي منذ بدايات الهجرات الأولى الجرمانية على أطراف الدولة الرومانية الغربية والتي بالنتيجة تمكنوا من استيطانها والسيطرة على عاصمتها روما .

وحتى مع اعتناق الجرمان المسيحية الكاثوليكية الغربية كعقيدة دينية عوضاً عن الديانات الوثنية السابقة التي كانوا يمارسون تحت شعارها القتل والإبادة و السلب والنهب ، فقد اعتنقوا الكاثوليكية كأيدلوجية دينية جديدة وكشعار جديد وجذاب للسلب والنهب ، وقد تجلى ذلك في حركة الحروب الصليبية على بلاد المسلمين تحت شعار تحرير الأماكن المسيحية المقدسة من سيطرة المسلمين زعموا [1] ، وحين تمكنوا من الأخذ بزمام الحضارة ومعرفة استخدام وسائل الحضارة الجديدة - التي لم يكونوا يعرفونها - من الحضارة الإسلامية مثل علم الجغرافيا وعلم الخرائط والنجوم وبناء السفن الكبيرة وتمكنوا من الخروج إلى العالم من معزلهم في أوروبا الغربية مارسوا نفس الشيء بصور أفظع وأبشع مما كان في السابق ، فأبادوا شعوب قارات العالم الجديد ، وغيرها من فظائع شتى في حق شعوب العالم أجمع ، حتى أنه يخيّل للمرء أنهم مع ادعائهم اليوم للقيم الحضارية والإنسانية من رحمة وعدل أنهم لو تمكنوا من اكتشاف كوكب آخر حي في الفضاء وفيه أمم وحضارات ولديهم القدرة على إبادتهم لما ترددوا في إبادتهم وربما تحت شعار آخر ، ويمكن أن يعلن شعارا براقا جديد : مثلا المجتمع

(١) تاريخ العصر الوسط في أوروبا . الجزء الأول . د . نور الدين حاطوم . دار الفكر . ص ٨٣٦ .

الدولي أو العالم الحر !. ولأنه حر يجوز له ما لا يجوز لغيره . ليس هذا فقط بل أكثر من ذلك حين لا يجدون ما ينهبون ويدمرون فإنهم يعودون على بعضهم البعض في محاولة لنهب وتدمير بعضهم بعضا تحت شعارات وأيديولوجيات براقة تخدم الأهداف التي يرنون إليها ولو على حساب بعضهم بعضا ، وذلك أنهم يغلبون المصالح الخاصة الأنانية المفرطة في الأنانية ، كالنار حين لا تجد حطاماً تحطم نفسها ، وذلك تحت شعارات عنصرية من مثل : الرجل الأبيض – الجنس الآري – النازية – الفاشية والنتيجة كارثة بل كوارث وإبادات كالحربين العالميتين الأولى والثانية التي قتل فيها عشرات الملايين ، ناهيك عما سبقها من حروب طاحنة بين تلك الدول الأوروبية من قبيل : حرب المائة عام[1] وحرب الثلاثين عاما وغيرها ، يا الله ما أبشع الإنسان حين لا تكون له قيم وأخلاق يعتز بها ويرتدع لها ويقيمها علامات ومنارات شامخة في حياته تردعه من الطغيان على أخيه الإنسان ، هذه القيم الكبيرة والعظيمة التي لا أجد لها وزنا كبيرا ومعتبرا إلا في دين الإسلام وحضارته ، وخاصة عند المسلمين الأوائل في صدر الإسلام والقرون الأولى من تاريخ المسلمين والذين في مقدمتهم في تلك الفترة العرب الذين كانوا ليسوا بأحسن حال من غيرهم حين لم تكن لديهم تلك القيم التي جاء بها الإسلام ، التي كانت تمنعهم من ممارسة ما مارس أجدادهم في (الجاهلية) قبل الإسلام ، كما فعلوا في حروب طاحنة بينهم كحرب البسوس وحرب داحس والغبراء لأربعين سنة من أجل سباق خيل ما يدل

(١) تاريخ أوروبا العصور الوسطى . القسم الثاني . ترجمة : السيد الباز مصطفى ، إبراهيم أحمد العدوى . الطبعة الثالثة . دار المعارف بمصر . ص ٣١٠ .

على همجية الإنسان غير الملتزم بقيم وأخلاق معتبرة ومقدمة لديه[1].
فالمسلمين الأمة الوحيدة التي لم ترتكب جرائم إبادة في حق الشعوب الأخرى ، حيث أن العرب المسلمين هم من بين الشعوب الفاتحة في تاريخ البشرية ، فقد سبقتهم إلى ذلك شعوب فاتحة أخرى كالفرس والرومان ، وخلفهم شعوب فاتحة أيضا كالروس والانجليز والفرنسيين ، فكل هذه الإمبراطوريات مارست الإبادة وفي أحسن أحوالها القتل والتهجير ، في حين أن المسلمين لم يفعلوا ذلك بأحد من الشعوب التي خضعت لهم ، وأنظر إلى تاريخ الإمبراطورية العثمانية حين اعتنقت الإسلام ومبادئه ، ماذا كان حال الشعوب الأوروبية في البلقان حين خضعت لحكمها عدة قرون ؟ لم تبد شعوب هذه المنطقة ولم تهجرهم . ربما لو كان العثمانيون على غير دين الإسلام لفعلوا مثل ما فعل الأخريين ، فما أرتكب من أخطاء وعنف كان في مراحل انحطاطها وظهور القوميات بين شعوبها وخاصة في فترة سيطرة جمعية الإتحاد والترقي . إنه الإسلام . فهلا أعيد التفكير ؟ . وهذا لا يعني أن المسلمين أناس يختلفون عن بقية البشر فقد كانت لهم أخطاؤهم التي كانت على نطاق ضيق وفردي ، وإنما أقام المسلمون حضارتهم وتوسعهم الحضاري وفتوحهم على قيم الإسلام الخالدة التي أنعم الله بها على الإنسانية من قبيل تحريم الظلم ونشر العدالة والمساواة التي هي من صميم الدين الإسلامي ، ليس هذا فحسب بل اعتراف الإسلام بالتعددية والتنوع البشري والديني والحضاري الذي يمهد إلى التعاون بين الناس بعدل ومساواة ، فليس هناك ميزة لجنس على جنس ولا فرد على فرد إلا بتقواه وقربه من الله سبحانه المهيمن على هذا الكون قال رسول الله ﷺ **(أيها الناس إن ربكم وان أباكم واحد ، كلكم**

(١) العرب في العصر الجاهلي . حسين شعيب . دار الفكر العربي . بيروت . ص ٦٧ .

لأدم وأدم من تراب إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى ...)[1]، وبالتالي أنه لا يحق لأي فرد ولا جماعة ظلم أي فرد أو جماعة أخرى حتى وإن قامت الحروب بين تلك الجماعات ، وهذا يعني أن شعوب العالم يجب عليها أن تعيد التفكير في ثقافاتها ومبادئها الأخلاقية في ضوء الأخوة الإنسانية ، وعليه فإنني أوجه دعوة إنسانية خالصة لكافة شعوب الأرض لدراسة الدين الإسلامي خصوصا وحضارته عموما بتمعن وبحيادية وعقلية منفتحة بدافع الاستفادة وطلب الحق واستجلاب الأصلح لها ودولها ، ففي الإسلام المسلم محاسب على أعماله ومبادئه التي يعلنها وإنه سينال جزاءه بمطلق العدالة الإلهية في اليوم الآخر الذي يؤمن به أتباع الديانات السماوية الثلاثة اليهودية والنصرانية والإسلامية ، فمن عمل خيراً وجد خيراً وزيادة ، ومن عمل سواه وجد مثل عمله فتكون الحياة مرتبطة بالآخرة ، وهذا هو سر مكانة القيم والأخلاق عند المسلمين أنهم محاسبون عند الله فمثابون أو معاقبون !!!. فلو كانت قيم وأخلاق الشعب الأمريكي العظيمة خاضعة لإرادة الله سبحانه وأنهم سوف يحاسبون عليها في اليوم الآخر الذي يؤمنون به ، لما استطاعت أمريكا ولما سمح لها الشعب الأمريكي بضرب اليابان بالقنبلة الذرية في نهاية الحرب العالمية الثانية لأهداف ليس لها علاقة بإنهاء الحرب ، ولما كانت تعربد في العالم اليوم تغزو دوله بين الحين والآخر ، من الحرب الكورية إلى حروب أفغانستان والعراق ، ناهيك عن فيتنام وجرينادا . ولولا أن المسلمين ضعف عندهم هذا العامل المهم في حياتهم لكانت أوضاعهم أفضل مما هم عليه اليوم من تخلف حضاري في جميع المجالات العلمية والسياسية والاقتصادية والعسكرية .

(١) المسند . الإمام أحمد بن حنبل . شرح . حمزة أحمد الزين . الجزء ١٧ . دار الحديث . القاهرة . ص ١٢ . رقم الحديث ٢٣٣٨١. .

المبحث الخامس
العالم يذكر بوجوده

ما أن تدارك القرن التاسع عشر وأفل نجمه حتى خضع العالم في جميع أنحاء المعمورة للسيطرة الغربية الأوروبية ، إذ كانت بريطانيا تسيطر على ثلثي الكرة الأرضية تقريباً ، وهي لا تعدو جزيرة في أطراف المحيط الأطلسي ، ولكن هذه سنن الله سبحانه وقوانينه من يعمل بها ويحسن استخدامها تكون له النتائج الإيجابية والمنعة والتطور والقوة ، فهذه السنن والنواميس (القوانين) متاحة لجميع البشر بكل شعوبهم وأطيافهم بعدالة إلهية متناهية لا تصدر إلا من قوة تمجد العدل إلى أعلى الدرجات ، وليس ذلك إلا لله العدل الخالق العظيم ، ومن هذه السنن والقوانين حب العمل والنظر في الخلق والكون الفسيح ، ففي حين كان العالم بجميع حضاراته العريقة وشعوبه الكبيرة غارقة في التيه والتخلف والجهالة ، كانت على ضخامتها وعظم تراثها صيدا سهلا لهذه الأمم الناشئة الممجدة لهذه القيم ، فكانت وبالا على هذه الحضارات العريقة لكن المتخلفة عن العصر ، إلا أن ذروة ذلك الوبال كان على شعوب وحضارات العالم الجديد .

ولكن لم يدم هذا الحال طويلاً إذ بدأ العالم يتململ هنا وهناك ، نتيجة لظروف وأسباب متعددة ومتباينة أدت إلى نتيجة واحدة وهي الصحوة العارمة التي سادت الدنيا ، فقد ظهرت حركات التحرر بين كل الشعوب للخلاص من نير الاستعمار ، فهذه أمم يمكن أن تنام وتتخاذل ولكن سرعان ما تنفض الغبار وقد كان لها ماأرادت ، فمن هذه الأسباب

الاختلافات الكبيرة والهائلة بين أقطاب القوى الأوروبية الاستعمارية الناجمة عن التنافس الشديد على فرض الهيمنة والاستعمار على أكبر قدر ممكن من بلدان العالم ، ويتجلى ذلك في مثالين واضحين الأول: في التنافس المبكر بين كل من اسبانيا والبرتغال ، حتى أن بابا الكنيسة تدخل بالصلح بين الدولتين وقسم العالم بينها إلى قسمين[1]، والمثال الثاني التنافس الشديد والشرس بين كل من بريطانيا وفرنسا والذي يعد منتهى الاستعمار وأوج عظمته ، حيث إن الاستعمار قد بلغ مداه وخضع العالم لهاتين القوتين الكبيرتين ، إلى جانب ما حدث في فترة تاريخ الاستعمار الأوروبي من ظهور وصعود وهبوط قوى أخرى كبيرة وصغيرة في حموة هذا التنافس ، فقد كانت القوى الأوروبية تطرد بعضها بعضا في حروب كبيرة ومستمرة ، إذ كانت المصالحات وتقاسم النفوذ لا تجدي نفعاً فقد تعاقبت هذه القوى على المستعمرات من أسبانيا والبرتغال ومن بعدهما الهولنديون إلى مجيء البريطانيين والفرنسيين الذين تعرضوا لمحاولات طرد بدورهم وكان البطل في ذلك الألمان ، وكانت النتيجة أن رزق العالم بحربين كبيرتين هما الحربان العالميتان الأولى والثانية والتي لا أراها حربين عالميتين بل هما حربان أوروبيتان على رقعة العالم ، مما نتج عنهما ظهور قوتين كبيرتين جديدتين وارثتين لعالم لا يوجد فيه ما يمكن استعماره ، فقد تم استعماره بالكامل ، مما يعني إجبار القوى الاستعمارية القديمة على التخلي عن تلك المستعمرات والخروج منها لصالح القوى الجديدة ، بحجة براقة تاقت لها الشعوب المستعمرة ، وهي (حق تقرير المصير)

(١) دراسات في الكشوف الجغرافية وتطور الفكر الجغرافي . د فتحي محمد أبو عيانة ، د. محمد خميس الزوكة ، د. عيسى علي إبراهيم . دار المعرفة الجامعية . الإسكندرية . ص ١٦٧ .

وهذا ما فتح بابا جديداً لنفوذ جديد ملائم لعصر جديد من الهيمنة في ظل التنافس المحموم بين القوى الجديدة الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية ، وهذا ما أتاح الفرصة لشعوب العالم للمقاومة وبذل الجهود الجبارة للخلاص من الاستعمار، فظهرت الثورات التحررية العالمية نتيجة للتغيير الهائل لتبادل الأدوار وتبادل المراكز بين القوى الدولية الكبرى الناتج عن الصراع المرير بينهما .

وسبب آخر أن العالم كان يسوده شعوب ذات حضارات عظيمة لا يمكن لها أن تستمر في سباتها العميق ، فما تلبث أن بدأت تصحوا هذه الشعوب من صدمتها الحضارية فظهر بمجرد أن دق لها جرس الإنذار وإن كان ذلك بدرجات متفاوتة فقد كان الاستعمار الأوروبي جرس الإنذار وقد كان حقيقة جرس إنذار مزعجا للغاية! ، وأوضح أمثلة الاستجابة لهذا الإنذار ثلاث حضارات : وهي الحضارة الإسلامية بشعوبها المختلفة والتي استجابت بسرعة فقاومته وجاهدته ، فقد كانت لها تجربة سابقة ومريرة مع أسلافهم الصليبيون في الحروب الصليبية الأولى على المشرق الإسلامي في العصور الوسطى ، وقد تكللت المقاومة الإسلامية بالنجاح ، في حين وللأسف فشلت شعوب الحضارة الإسلامية في الانبعاث الحضاري من جديد فقد تمكنت من طرد الغزاة ، ولكن لم تتمكن من وقف التدهور الحضاري الذي كانت عواقبه وخيمة لاحقا ، إذ تمكن نفس المستعمر من العودة الاستعمارية ثانية فهرعت الأمة الإسلامية إلى المقاومة . وكذلك فعلت الحضارتين العريقتين الحضارة الصينية التي قاومت ونجحت ثم نمت وتقدمت على الصعيد الحضاري ، وأيضا الحضارة الهندية سارت على طريق

التحرر والتقدم ولم تعد درة التاج البريطاني . وعلى نفس الطريق سارت شعوب أخرى صغيرة وكبيرة طلبا للتحرر من نير الظلم الواقع عليها في كل من آسيا وإفريقيا وأمريكا الجنوبية .

فالحرية ليست مطلبا لشعب دون شعب ، بل إن الحرية ما ترنو لها كل نفس بشرية أفرادا وجماعات ، إذ إنها لا تقاس بثمن إلا الموت الذي في سبيلها يهون فيقدم عليه الإنسان بشجاعة عظيمة مع ما يمثل من رهبة .

وقد استجابت تلك الحضارات للتفاعل الحضاري بدرجات متفاوتة ، إذ كانت الحضارة الصينية أنجحها فقد ألحقت تحررها بظهور حضاري سريع وواضح وعلى خطاها تسير الحضارة الهندية ، في حين أن الحضارة الإسلامية ما زالت تترنح ، فحسب السياق الزمني والظروف الدولية تنمو وتزدهر هذه الحضارة أو تلك ، فلم تتبع شعوب الحضارة الإسلامية تحررها بنهوض حضاري يليق بها كحضارة كبيرة ، وفي مقابل ذلك نجد إصرار الحضارة الغربية الفتية والمتحفزة على القضاء على ما سواها من الحضارات في محاولات جامحة لتوحيد العالم تحت لوائها ، وذلك ليس للنهوض به إلى أفاق الحضارة العالمية الأثنية المرتقبة ، وإنما لتسخيره وسلب موارده لخدمة هذه الحضارة الأوروبية وشعوبها الأوروبية ، وقد أحرز الأوربيون لحضاراتهم نجاحات ليست بالقليلة في السيطرة على حضارات عالمية هنا وهناك ، ومع الأسف لم يكن ذلك بالتلاحم والتعاون الحضاري وإنما بالقهر والعدوان إلى درجة أنه تم إبادة شعوب وحضارات أقل قدرة على المقاومة حتى أصبحت أثراً بعد عين !! .

من هنا بدأ العالم يكتشف عدة اكتشافات بديهية .- وخاصة الحضارات الكبرى في العالم - مكنتها من إعادة التفكير فيما يحدث وخاصة حين تمكنت من امتصاص الصدمة الحضارية ، وبدأت تستوعب المنجزات التقنية الحضارية للحضارة الأوروبية الحديثة التي تعد إنجازات هائلة ونوعية في البناء الحضاري العالمي ، فقد كانت هذه الانجازات تمثل هذا التحول لدى هذه الحضارات ، وذلك بمحولاتها الحثيثة لاستخدام هذه المنجزات المتعددة للحاق بالركب الحضاري ، أيضا مكنت الصدمة الحضارية الأوروبية هذه الحضارات من إمكانية استيعاب الانجازات الحضارية الحديثة وتكييفها لتتوافق مع إرثها الحضاري ، وليس هذا فقط وإنما التطوير والإنتاج للاشتراك في الحضارة العالمية ، فهي حضارات ليست عقيمة بل إن لها مشاريع وتطلعات مبنية على عوامل قوة هائلة في كل حضارة من حيث البعد التاريخي الموغل في الزمن ، ولامتلاكها مقومات الثقافة العالمية المتجددة والمستوعبة لكل جديد ، ناهيك عن امتلاك المقومات المادية الكثيرة والكبيرة في جميع المجالات سواء كانت بشرية أو مادية ، فهناك شعوب كبيرة وهائلة العدد شابة ومتحفزة للنهوض الحضاري ، وكذلك تملك ثروات مادية عظيمة في المجالات كافة من الطاقة والمعادن والزراعة والأنهار الكبيرة والمحيطات الهائلة والأراضي الشاسعة التي لو أحسن استغلالها وترشيدها لكان التغيير الهائل المتوقع ، فضلا عن المواقع الإستراتيجية على مساحة الجغرافيا العالمية التي تتحكم في حركة الملاحة البحرية العالمية من مضائق وطرق بحرية تدعم هذا الزخم الحضاري لهذه الحضارات الواثبة للاستجابة الحضارية ، أيضاً

الاكتشافات الهائلة للثروات الطبيعية التي دعت الحضارات لمقاومة الأطماع الدولية في ثروات شعوب تلك الحضارات التي أوضح عنها طمع القائمين على الحضارة الغربية ، فقد كانت السبب الرئيسي لحركة الكشوف الجغرافية ومن ثم حركة الاستعمار العالمية لنهب خيرات وثروات الشعوب[١]، من كل هذا وغيره أدرك العالم بجميع حضاراته الكبيرة والصغيرة الحديثة والقديمة أن العالم بجميع مكوناته البشرية والحضارية يعيش على ظهر كوكب واحد ، وإنه لم يعد بإمكان أي حضارة أن تنعزل في بقعة جغرافية معينة بل إنها لو فعلت ذلك حكمت على نفسها بالفناء والزوال من العالم ، حيث إنه ولأول مرة ينكشف العالم للجميع ، فلم يعد هناك قارات مجهولة ولا بحر ظلمات ولا أساطير ولا خرافات تلف العالم في كله أو جزء منه بل انه التعارف ، نعم التعارف ! .

(١) تاريخ الرحلة والاستكشاف في البر والبحر . إسماعيل العربي . المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر . ص ٩٣ .

المبحث السادس
هل كان لابد من هذا العداء ؟!!

في الحقيقة هذا السؤال ضخم يستحق التأمل والتفكير ، لماذا هذا العداء بين المسلمين والغرب ؟ ومن صنع هذا العداء ؟ أهو التاريخ أم الجغرافيا ؟ أم أن التماس الحضاري وراء هذا العداء ؟ ربما يكون التماس الحضاري من الأسباب وراء ذلك العداء ، ولكن هو أيضا سبب قوي للتقارب والتفاعل الحضاري ، ولكن ما سبب هذا العداء ؟ وللإجابة عن هذا السؤال يجب العودة إلى التاريخ البشري الطويل وخاصة تلك الفترة التي انتهت فيها العصور القديمة وبدأت فيها العصور الوسطى وهى الفترة التي انهارت فيها الإمبراطورية الرومانية الغربية بسقوط العاصمة روما ويليها بعد ذلك ظهور الإسلام مباشرة وذلك في القرنين الخامس والسادس حيث كان لا يوجد عداء إذ لم يكونا أصلا على الخريطة ! .

فمنطقة حوض البحر المتوسط منطقة إستراتيجية جاذبة لكثير من الشعوب والدول التي سادت عبر العصور ، وبالتالي يمكن أن يقال إن التاريخ يلتقي فيها ، وذلك واضح من تعاقب الدول والحضارات والهجرات عليها عبر التاريخ من قارة آسيا على الخصوص ، وهي أيضا المنطقة الأهم التي خرجت منها الدول والهجرات إلى أماكن أخرى من العالم ، من كل هذا يكون من المفيد دراسة تاريخ قارات العالم القديم الثلاث كوحدة تاريخية واحدة مما قد يؤدي إلى فهم أكبر فتفاهم أكثر، ومع الأسف هذا ليس مكانه وليس لدي القدرة على القيام بمثل هذه الدراسات الضخمة والعميقة ، ولكن يمكن لي أن أدعو إلى مثل هذا الأمر ، إلا إنه من نظرة

سريعة على التاريخ نجد أن جل هذه التدفقات البشرية عبر التاريخ إن لم تكن كلها قادمة من أسيا بكل عادتها وثقافاتها ولغاتها وأساليبها المعيشية والقتالية ... إلخ ، وهنا نجد أن معظم شعوب المنطقة قد تفاعلت بعضها مع بعض في كل مجالات الحياة وبكل أدوات الحضارة السلمية والحربية ، وذلك بدرجات متفاوتة من العداء ومنها التياران الكبيران (العربي الإسلامي) في الشرق و(الجرماني الأوروبي) في الغرب الذي أجد أن أسباب العداء بينهما قليلة لو أحسن الطرفين التصرف .

مع بداية القرن الخامس الميلادي كان العالم يرزح تحت نير حكم أعظم إمبراطوريتين في العالم آنذاك الفرس والروم اللتان كانتا في صراع مستمر فيما يسمى صراع الشرق والغرب بينهما في حروب متبادلة ومستمرة أنهكت قوامهما وأهدرت ثرواتهما[1]، ناهيك عن بقية الشعوب الأخرى الواقعة في شراكهما والتي كانت في صراعات بينها نيابة عن القطبين ، مما يسر إنجاز التغيير القادم الذي سيحدثه هذان التياران الجديدان ، فقد حدث أن حركة التاريخ لم تعد تجري لصالح هذه القوى الكبرى ، إذ أخذ التاريخ يقلب ظهره لهما ويولي وجهه شطر عالم أخر تلوح تباشيره في الأفق ، فقد وصل العالم القديم إلى نهايته ولم يعد يصلح لشيء ، بل أصبح ضرره أكبر من نفعه ، فلم يعد لقواه من إنجاز سوى الحروب من أجل الحروب كالنار تحطم الحطب حتى إذا لم تجد حطبا أكلت نفسها فيسهل إطفائها ، وهذا ما حدث فقد أطفأت نيرانهما قوى جديدة متدفقة بحيوية وفاعلية في اتجاهين متوازيين

(١) تاريخ العالم الغربي . ل ج شيني . ترجمة مجد الدين حفني ناصف . دار النهضة العربية . القاهرة . ص . ٦٠ .

على جانبي البحر المتوسط الجنوبي والشمالي مؤذنة بنهاية العصور القديمة وبداية الصور الوسطى التي العصور الحديثة استمرار لها إلى اليوم ، فما اليوم إلا امتداد للأمس ، وهذه القوى الجديدة هي : المسلمون في جنوب المتوسط والقبائل الجرمانية في شمال المتوسط اللذان ورثا العالم القديم في هذه المناطق من المسرح الدولي عبر قاراته الثلاث آسيا وإفريقيا وأوروبا .

غبر أن هذين العالمين مختلفان بعضهما عن بعض في الظهور والمقومات والغاية التي خرجا من أجلها ، فالتيار (الشمالي) ظهر تدريجيا وبدأ تأثيره على المسرح الدولي بتمكنه من إسقاط (روما) عاصمة الإمبراطورية الرومانية الغربية والسيطرة عليها سنة ٤٧٦م الذي كان تتويجا لقرون من التغلغل البطيء والمتواصل في أراضي الإمبراطورية الرومانية الغربية .

في حين ظهر التيار (الجنوبي) مع بدايات القرن الميلادي السابع الذي ظهر فيه الإسلام ونبيه محمد ﷺ في جزيرة العرب سنة ٦١٠م ومن ثم تمكن المسلمون من القضاء على دولة الفرس وتحجيم الدولة البيزنطية التي عانت الضعف والتهاوي لقرون طويلة .

وجه آخر لاختلاف التيارين أن التيار الجنوبي خرج من أجل فكرة إصلاحية عالمية وهي نشر الإسلام ومبادئه بين العالمين وأولها عبادة الله وحده ، وهذا الخروج أو (الفتح) الوحيد الذي كان لأسباب سامية وذلك واضح في وصايا الخلفاء الراشدون لقادة الفتح ، وربما شاب هذا الفتح أطماع أو طموحات طامحين من أبنائه فيما بعد إلا أنها ليست أصيلة في مسيرة الفتوح الإسلامية ، فالعرب المسلمون من بين

الشعوب الفاتحة إلا أنهم لم يخرجوا لمطامع ومطامح قادة أو تطلعات اقتصادية أو توسعية كبقية أولئك الفاتحين ، لذلك كانت أهداف هذا التيار واضحة فكانت النتائج سريعة وحاسمة .

أما التيار الشمالي فظهر نتيجة لتفاعلات اجتماعية واقتصادية وطموحات قيادية لبعض زعماء هذه القبائل ، ناهيك عن كوارث الجفاف والإبادات المتبادلة بين هذه القبائل نتيجة الحروب بينها التي أدت إلى دفع بعضها البعض هربا وطمعا في تدافع دام عدة قرون وصل أوله إلى سواحل غرب أوروبا كالقوط الغربيين وآخره في وسط آسيا القبائل التركية فيما أستوطن السلاف شرق أوروبا ، غير أن الذي سوف يكون له شأن كبير في هذا العداء و تأثيرا في التاريخ لاحقا هو مستوطنو غرب أوروبا (الجرمان) ، وفي خضم الأحداث التي جرت فانه لابد من ملاحظة ما يلي :

١ - أنه لا يوجد ما يوجب العداء بين الطرفين كعداء سابق مثلا .

٢ - أن الجانبين مشتركان في عملية إنهاء العالم القديم والقضاء عليه .

٣ - أن التيارين الجديدين لا ينتميان إلى العالم القديم بشيء ، بل كانا خارج أحداثه ولم يشتركا في بناء حضارته ، وإنما ورثا العالم القديم معا ، وعليه فان التيار الشمالي الجرماني ليس امتدادا طبيعيا للإمبراطورية الرومانية الغربية وحضارتها ، كما أن الفرس ليسوا عمقا تاريخيا وحضاريا للعرب المسلمين فلا ادعاء هنا يمنح ميزة .

٤ - إن اعتناق التيار الجرماني الشمالي للديانة الكاثوليكية لا يعني أيضا أنه امتداد طبيعي للإمبراطورية الرومانية فهو عالم أخر في الزمان والمكان ، فهل الفلبين الكاثوليكية مثلا امتدادا للإمبراطورية

الرومانية أيضا ؟! وينسحب ذلك أيضا على الفرس إذ إنهم ليسوا جزءا من العرب المسلمين لأنهم اعتنقوا الإسلام ، غير أن الفرس بدخولهم الإسلام أصبحوا أخوة في الدين والحضارة ، ويجب التشديد على ذلك لأنه سوف يكون من أسباب العداء فيما بعد ، وذلك حين يشن التيار الشمالي غزواته باسم الدين على الشرق لاسترداد ما فقدته الإمبراطورية الرومانية هناك وخاصة تحرير الأماكن المقدسة في زعمهم ، ما سوف نجد ثمنه باهظا فيما بعد .
إذا فما سبب العداء ؟

لنعيد النظر مرة أخرى إلى التاريخ نجد أنه لم يكن هناك أي احتكاك بين الجانبين حتى بدايات القرن الثامن الميلادي حين فتح التيار الجنوبي (العرب المسلمين) الأندلس سنة ٧١١م والذي كان موازيا للفتوح الإسلامية في الهند والصين من نفس السنة ، ولم تشعل تلك الفتوح مثل ذاك العداء الطويل عند هاتين الأمتين العظيمتين ضد المسلمين ، ثم ما نتج عن هذا الفتح في معركة بلاط الشهداء (بواتيه) سنة ٧٤٠م تلك المعركة التي توقف بعدها المد الإسلامي لبلوغه أقصى مداه ، وقد كانت دفاعا من الفرنجة عن أنفسهم وليس نجدة للقوط الغربيين في اسبانيا فقد كان الأصل في العلاقة بين القبائل الجرمانية هو العداء ، فلا يقال أن هذه المعركة كانت دفاعا عن الوحدة الأوروبية ، ثم لم يحصل قتل وإبادة من قبل الطرفين خارج المعارك القليلة بينهما كي تثير هذا العداء الذي كان أوله في الحروب الصليبية ! ، بل هدوء أو شبه هدوء ايجابي بين كلا الطرفين العرب المسلمين والفرنجة الجرمان إلى سنة ١٠٩٩م ! سنة بداية حروب الفرنجة (الصليبيين) على بلاد

المسلمين ، فبحسبة بسيطة نجد أن الفترة من سنة ٦١٠م حين ظهور الإسلام إلى سنة ١٠٩٩م بداية الحروب الصليبية كانت عادية قياسا على غيرها من الشعوب التي تعرضت للفتح الإسلامي ، فثمة حوالي خمسة قرون هادئة تقريبا ، ثم بعد ذلك الاحتكاك الثاني والمبادر به الفرنجة الصليبين الذين ضربوا بلاد المسلمين بحملاتهم الصليبية لمدة ٢٠٠ سنة ، فنجد أن فترة الهدوء إلى الآن أكثر من فترة التوتر ، والسؤال هنا أي الاحتكاكين يثير العداء بين الجانبين ؟ فالاحتكاك الأول الذي بادر به العرب المسلمون في الأندلس أسفر عن حضارة إسلامية في أوروبا تبعث على الفخر والاعتزاز ، أما الاحتكاك الثاني الذي بادر به الصليبيين في بلاد المسلمين فلم يسفر سوى عن القتل والدمار وشن الحروب الطاحنة لقرنين من الزمان ولم تسفر عن ما يمكن أن يفخر به منصف ، فأيهما أنفع للناس ؟ ثم انكفأت أوروبا على نفسها مرة أخرى إلى أن خرجت في العصور الحديثة بصورة أعنف عمت هذه المرة أنحاء العالم مسلمين وغير مسلمين استبطانا واستعمارا مرتكبة أبشع الفظائع في حق الأمم الأخرى فأبادت شعوبا بأكملها ونهبت وسلبت أخرى ، فأي شعوب الأرض اعتدى على أوروبا حتى يستحق أن تشن عليه حروبها الاستعمارية الحديثة ؟ ولكن لابد من ذكر حقيقة ساطعة وهي أن أوروبا هذه المرة خرجت للعالم بثوب حضاري مادي جديد لم تكن تلبسه من قبل فقد أصبحوا رواد الحضارة الحديثة التي بهرت العالم بانجازاتها على كل الأصعدة سواء كانت علمية أو صحية وغيرها ، وكذلك مكنت الإنسان من امتلاك وسائل قوة لم تكن في حسبان رواد الحضارات السابقة ، مما أتاح لأوروبا السيطرة على العالم بوسائل

حربية حديثة استخدمتها بوحشية مفرطة يحسدهم عليها أسلافهم الصليبيين . فمن يثير العداء ليس مع المسلمين فحسب بل مع أمم العالم ؟ لو حدث وتمكنت أمة من الأمم من الأخذ بزمام الحضارة والقوة ترى ماذا ستفعل بكم ؟! يجب على الغرب إعادة النظر .

المبحث السابع
الفرصة القائمة

والآن هل يمكن الخروج من دائرة هذا العداء المستحكم بين الجانبين ؟

ربما فالدين والتاريخ والواقع الإنساني يشير إلى ذلك وقد كان ذلك جليا في الفترة التي تلت فتح المسلمين لبلاد الأندلس إلى بدايات الحروب الصليبية ، كذلك ما تدعوا إليه الأديان السماوية وحتى غير السماوية ، ففي الإسلام أن الله سبحانه وتعالى خلق الناس شعوبا وقبائل ليتعارفوا ، وان أكرمهم عند الله اتقاهم .

ومع أن العالم قد وجد طريقه إلى التفاهم والتعايش بل والتعاون من أجل حل مشاكله والسير نحو أهداف ومشاريع مشتركة تعزز هذا التعاون ، فإنه من خلال سير التاريخ نجد أن الأصل الإنساني واحد ، وهذا ليس مكتشفا حديثا بل مسلمة يعرفها القاصي والداني ، ويعرفها الإنسان الأول من قبل كما يعرفها الإنسان في العصر الحديث ، غير أنه حتى يكون السياق مناسبا فإن هذه الحقيقة تعد أصيلة وإن الإنسان أخو الإنسان في أي مكان وفي أي زمان ، وهذا يفترض أن يكون التعاون هو السائد لا ما حصل من القتل الذي نال كل الأجناس ، إن الإنسان ارتكب الكارثة الكبرى التي هي أم الكوارث حين تجرأ أحد ابني آدم على قتل أخيه نتيجة التنافس والغيرة غير المحمودة والتي كانت المثال السيئ والمحتذى الذي سارت عليه البشرية في مختلف أزمانها في التعامل فيما بين بعضها البعض قال تعالى : ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ

ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾[1] ، حيث إن القتل الوسيلة الأسهل والأسرع في حل أوجه الخلافات تحت أي مبرر ، فكل فئة مارست هذه الكارثة تحت مبرر يتناسب والظروف الخاصة بها وكذلك المكانة والقوة التي تتمتع بها بما يغطي على الهدف الحقيقي لها ، فعلى مستوى الأفراد تختلف الظروف والأهداف عن مثيلاتها لدى العائلات وكذلك مبررات ومسوغات القتل عند القبائل المختلفة تختلف عن مبررات ومسوغات الشعوب المختلفة ، ولكن النتيجة النهائية واحدة هي ممارسة كارثة القتل . والحقيقة أن الإنسانية قد أدركت عظم الكارثة التي وقعت فيها سواء بوعي أو بدون وعي ، حيث بدأت تحاول تدارك ما يمكن تداركه باستحداث التشريعات البدائية الأولى لضبط تصرفات الأفراد وبعض الجماعات الصغيرة بأفرادها ومجاميعها ، وإن كانت هذه التشريعات السامية لأغراض غير سامية في كثير من الأحيان مثل تثبيت السلطة والقوة عند صاحب القوة وإن مارس هو القوة والقهر ، في حين أنه ظهرعلى هامش تقنين القوة والاستحواذ عليها بتشريعات وقوانين ظاهرة سامية يفاخر بها العالم اليوم ، ظاهرة الحضارة الشاملة لجميع مناحي الحياة التي هي ثمرة جهود الإنسانية عبر التاريخ ، غير أن هذه الثمرة لم تكن لتحيط بالدوامة التي دخل فيها العالم عبر تاريخه الطويل من غير العمل من أجل تدارك هذه الكارثة ، فلو طرح سؤال بسيط من قبيل : ما هو التاريخ؟ تكون الإجابة باختصار مخل .. كلمة واحدة هي (الحروب) أي نية القتل المتبادل .

(١) سورة المائدة . الآية . ٢٧ .

ومع ذلك فإن قيام الإمبراطوريات وتوسعها وسيطرتها على شعوب كثيرة يعتبر نوعا من التعاون بين الأمم والشعوب ، وإن كان قسريا وظالما وقائما على الاستبداد من قبل مجموعة على سائر المجموعات الأخرى أو حتى داخل المجموعة ذاتها ، ومن المفارقة أن هذا التعاون ليس إلا لتوسع الإمبراطوريات ! ، وقد كان ذلك التعاون مقبولا بين أمم العالم القديم لظروف وأسباب منها إن أعداد سكان العالم آنذاك ليست كبيرة كما هو الحال اليوم ، كذلك لبعد المسافات بين المراكز الحضارية (المدن) وذلك لقلة هذه المراكز إلى جانب اتساع مساحات الأراضي الفارغة بينها ، وأيضا صعوبة المواصلات والاتصالات ولا ننسى قلة الثروات المتاحة أمام تلك الشعوب ، ناهيك عن أن العالم ليس كما هو اليوم معروفا عند شعوبه بل مجهول لشعوب ذلك الزمان ، فالذين في الشرق لايعرفون شيئا عمن في الغرب ، فالكشوف الجغرافية الأوروبية مثال على ذلك وهم جزء من العالم اكتشفوا العالم الجديد في غرب الكوكب الذي لم يكن معروفا لديهم ، والعكس صحيح فقد اكتشف سكان ذلك العالم الجديد مكتشفيهم في نفس اللحظة ولكن بصورة مروعة !!.

واليوم نجد أن كل شيء من ذلك قد تغير وحدث عكسه فأعداد سكان العالم صارت بالمليارات ، والاتصالات والمواصلات متعددة ومتطورة وسريعة وتعم سائر أرجاء الكوكب ، وثروات العالم بآلاف المليارات من الدولارات ، وأيضا كثرت وكبرت المراكز (المدن) الحضارية في العالم ، ويكفي أن تعلم أن في عضوية الأمم المتحدة أكثر من ٢٠٠ عاصمة .

ليس هذا فقط بل إن الحضارة اليوم تسعى لدخول عالم لم يكن يحلم به رواد حضارات العالم القديم ، ذلك هو عالم الفضاء لرغبة

إنسان العصر للخروج إلى أفاق الكون الفسيح وارتياده في تطلعات عملاقة ترنوا إليها البشرية جمعاء قد يكون لها ما بعدها على مسار التاريخ الحضاري الإنساني ، وذلك في خطوة تستدعي من جميع مكونات الأسرة البشرية التفكير بصورة جدية وجماعية في التعاون الايجابي القائم على المصالح المشتركة وتبادل المنافع مما سيؤدي إلى بلوغ هذا الهدف وغيره .

ولكن كل هذا الطموح إلى ذلك التحول الكبير لم يواكبه تحول مماثل في التفكير الإنساني ، فقد قابله ركود إن لم نقل جمود فكري للنهوض بحزم لتطوير أفضل السبل لتفعيل كل أوجه التعاون البشري الايجابي ، إذ إن الدول الكبرى أو الإمبراطوريات أو المجموعات الإنسانية المسيطرة مازالت على عكس ما يقتضي العصر تفكر بالعقلية القديمة لمؤسسي الإمبراطوريات التوسعية القديمة ، وهنا نجد ازدواجية في التفكير ، فمن ناحية طموحات ضخمة للتطور والاكتشاف ومن ناحية أخرى عقليات تجمح للسيطرة والاستحواذ وإقصاء للآخر فما بالك بالنهب والسلب فالظلم.

فهل هذا العالم الذي نريد أن نخرج به إلى عوالم الفضاء الفسيح ؟!

إن عالم اليوم رديء ومهلهل ، والظلم فيه سائد مع أنه يمتلك من وسائل التقنية الكثير التي أحدثت له ثورة في أساليب عيشه ولكنها زادت أيضا من أساليبه في ممارسة الظلم بكل أشكاله ، فهو عالم يزداد فيه الغني غنى ويزداد فيه الفقير فقرا في مفارقة تثير العجب حتى على مستوى المجتمع المحلي لكل دولة ، إن عالما بهذا الشكل غير مؤهل لمشاريع بهذا الوزن بما في ذلك المجموعات (الدول الكبرى)

المسيطرة والمستحوذة على أعظم الثروات والتي تدعي غرورا التقدم الحضاري وتفاخر به !!

وعليه يمكن أن نسأل أسئلة خيالية حول ما يدور في عالم اليوم ، لو أن البشرية تمكنت من الاتصال بعوالم أخرى من الكواكب البعيدة عبر الفضاء الفسيح سواء كان المبادر إلى الاتصال البشرية أو (الفضائيون) وأريد تبادل الزيارات والتعارف بين هذه الأمم الكونية بما فيها أهل الأرض طبعا وذلك كما يحدث في عالمنا اليوم بين دوله ، وجاء ضيف كوني إلى الأرض وأثناء رحلته عبر الغلاف الجوي لاحظ بعض الملاحظات من نافذة مركبته الفضائية وسجلها في مذكرته وذلك من قبيل التطور والغنى الفاحش في بعض المناطق وكذلك من قبيل التخلف والفقر المدقع في بعض المناطق الأخرى ، وتساءل وقال ما الفرق بين هذه المناطق وتلك ؟ لماذا البعض عنده وسائل التطور من الطاقة النقل والاتصالات...إلخ وعند البعض الأخر تكاد تكون معدومة ومتخلفة ؟ هذا بعد ما أبدى إعجابه بجمال الكوكب طبعا ، ترى كيف تكون الإجابة !؟ وعليه لو أراد أن ينزل إلى الشارع فإلى أي المدن سنذهب به ؟ أإلى شوارع نيويورك أو باريس أو لندن أم إلى لاجوس أو انجامينا أو كابل ؟ في المقابل لو استطاعت البشرية أو جزء أو أمة من أممها اكتشاف كوكب مأهول وفي غفلة من سكانه ، فكيف سيكون التعامل معهم ؟ السوابق لا تبشر بخير ، فاكتشاف العالم الجديد كان كارثة بشرية !! أليس كذلك ؟ ليس هذا فقط ، فمع اختلاف العالم وصعوبة استعمار أمة لأمة أخرى أو السيطرة عليها ، فإن الدول الكبرى ما زالت تعمل وتكيد لحل مشاكلها على حساب الآخرين وذلك بالعمد إلى السيطرة على ثرواتهم وشن

الحروب الطاحنة عليهم في ممارسة عجيبة للظلم ، بل وتبرر ذلك بما لا يقبله العقل ، إذ إن أساليب وعقليات مؤسسي وقادة الإمبراطوريات القديمة ما زالت سارية بين أمثالهم اليوم ، وإن كان بصور مختلفة لغاية إخضاع أمم عديدة بمصالحها لصالح أمة طاغية ، ولنفس الغاية غاية السيطرة على الثروات تريد أمم من البشرية اليوم الخروج إلى الفضاء الخارجي لاستغلال ثرواته ، لذلك أرى بوضوح أن ما حدث إبان اكتشاف القارات الجديدة سيتكرر لو تمكن أحد من البشر اكتشاف كوكب مأهول وغير قادر على الدفاع عن نفسه ، وعليه فإنه يجب دعوة الدول الكبرى التي تمتلك تقنية الفضاء إلى أن لا تبادر إلى مباشرة أي اتصال أو إطلاق رسالة عبر الفضاء إلى عوالم مفترضين إلا بعد التشاور مع أمم الأرض حول ما ينبغي عمله حتى لا تتكرر كارثة اكتشاف القارات الجديدة باسم البشرية هذه المرة !!!

إن فرصة إقامة تعاون إيجابي بين أمم الأرض قائمة وكبيرة وخاصة مع الإمكانيات الكبيرة التي تتمتع بها البشرية اليوم والتي جعلت من الكوكب قرية عالمية ، وذلك بأن ينهض عقلاء العالم ومفكريه إلى الدعوة للتغيير الحقيقي والصادق للفكرة القائمة على الاستئثار الحضاري الذي يكرس أن جزءا من العالم متقدم ومزدهر ويصف نفسه بالعالم الأول والحر ويفاخر بهذا والجزء الآخر من العالم متخلف ويعاني من الفقر والجوع ، وليس هذا فحسب بل العمل من قبل القوى المهيمنة على أن لا يخرج هذا العالم المتخلف من ذلك ثم يوصف بالتخلف ، إن هذا ينم عن نظرة قاصرة ، وإن ما كان يحدث في السابق من حل مشاكل الدول الكبرى الاقتصادية على حساب بقية دول العالم لم يعد

مجديا ، إذ إن ما قامت به وتقوم به الدول الكبرى المعاصرة من حروب طاحنة على كثير من دول العالم لم تعد تقدم من العوائد ما يستحق أن تقام من أجله هذه الحروب .

وعليه يجب أن يدعى إلى مؤتمرات كبيرة وشاملة ومتتابعة لمناقشة مثل هذا الموضوع وغيره ، وكذلك لابد من تصفية ذلك الإرث التاريخي الثقيل بين الشعوب على أثر الانتهاكات والحروب المتبادلة بينها عبر التاريخ ولا سيما حركة الاستعمار الحديثة وما أدت إليه من انتهاك لحقوق الإنسان ونهب للثروات واستيلاء على الأوطان ، وذلك بالاعتراف بالكوارث التي سببتها للبشرية ، إلى جانب الكوارث التاريخية التي مازالت تؤثر في الأحداث إلى اليوم كالحروب الصليبية الأوروبية على المسلمين ، وحتى الأمم التي أبيدت في العالم الجديد إبان حركة الكشوف الجغرافية وغيرها من الكوارث عبر الكوكب ، ويجب أن ينتج عن كل هذا في نهاية المطاف دفع التعويضات المناسبة لحجم هذه الجرائم بين البشرية حتى لا تعود لتبادل القتل والظلم بدل الثقافة والتجارة ، ويكون المحرك لكل هذا تنمية الوعي المتنامي عند الناس بكل مستوياتهم بالتنوع البشري لسكان الكوكب الديني والثقافي والاجتماعي وحتى الجغرافي والتاريخي ، والإيمان بهذا التنوع والعمل على ترسيخه وحمايته ، ما سوف يؤدي إلى المرحلة الأكثر تقدما وهي بناء نظام عالمي تعددي اثني الحضارة بقوانين وأنظمة تسمح لكل مجموعة إنسانية بالعيش والنمو في جميع مجالات الحياة في حدودها الجغرافية ، بما يؤدي في النهاية إلى مجتمع دولي متنوع أثني الحضارة في صورة أكبر وأشمل من المجتمعات الإثنية في الدول الإثنية الحديثة .

والحقيقة أن هذه الفرصة قائمة ومتاحة في هذا العصر أمام العالم ، وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية لأنها القوة المؤثرة في العالم اليوم ، لما تمتلك من أسباب القوة المادية والحضارية الهائلة ، ولما يمتاز به المجتمع الأمريكي من تعديدية عرقية ، ففيها يتعايش مجتمع يتكون من معظم شعوب العالم من اليابان والصين شرقا إلى المكسيك وأمريكا الجنوبية غربا مرورا بباقي آسيا وإفريقيا ناهيك عن أوروبا التي لها الصدارة والأكثرية في المجتمع الأمريكي ، والتي آمل أن لا يكون هذا التنوع السكاني نقطة ضعفها ، إذ إن تأثير الأكثرية الأوروبية واضح في سياسات أمريكا وتوجهاتها ، فبنظرة على تاريخ أمريكا الدولة يخيل للناظر أنه يشاهد دولة أوروبية أو أنها امتداد طبيعي لجغرافيا القارة الأوروبية أو أنها قارة أوروبا الجديدة ، وهذا ممكن أن يكون صحيحا في وقت معين من تاريخ هذه الدولة العظمى ، واليوم هذا لم يعد يليق بأمريكا إذ يجب عليها أن تدرك تعدد شعبها وتنوع مشاربه ، وعليها أن لا تنسى أنها مازالت العالم الجديد ، من هنا يتحتم على أمريكا أن تدرك مكانتها العالمية الاقتصادية وإمكاناتها السكانية وفرصتها القائمة لقيادة العالم للتعاون التي لن تلبث أن تذهب إلى منتظر طامح لمثل هذه الفرصة ، إذ يوجد على أرضها ما يمكن أن نسميه المجتمع الإثيني العالمي المصغر الذي نستطيع أن نستفيد من إيجابياته بهذا الخصوص ، أيضا يجب عليها أن تدرك موقعها الجغرافي البعيد عن مظالم تاريخ العالم القديم مما يحتم عليها الحياد لخدمة هدف التعاون الإيجابي والذي يتيح لأمريكا فرصة التفاعل القيادي الإيجابي لجميع شعوب العالم بموروثاتها التاريخية وتطلعاتها المشروعة وغير ذلك من تطلعات الحضارة الاقتصادية والعلمية ...إلخ .

إن العالم اليوم يسير بخطى بطيئة نحو التوحد الحضاري والتعاون الإيجابي ، لأن كل الصراعات والحروب السابقة وما يراد لها أن تحدث اليوم لم تعد تجدي لحل مشاكل العالم ، وبالتالي ليس أمامه سوى التعاون والسير نحو نموذج حضاري واحد يجمع العالم ويخرج به إلى الكون الفسيح ، واليوم هذه فرصة أمريكا ماثلة أمامها كي تدخل التاريخ وتكون قائدة الحضارة العالمية إلى المستقبل الواسع ، إلا أن من يشاهد تصرفاتها في العالم وما تمارسه من غطرسة وحروب وغزو وهيمنة على بلدان العالم ربما لا يكون آخرها غزو العراق لا يدل على أن أمريكا تدرك هذه الفرصة ، لأنها تتصرف بأنانية وبدافع المصلحة الخاصة لها ، وهذا مرده في الحقيقة أن قادة أمريكا يفكرون بعقلية أباطرة الإمبراطورية الرومانية ، وأن أمريكا ما زالت ترى نفسها امتدادا للقارة الأوروبية إن لم تكن دولة أوروبية ، بل إن الواضح أنها ترى نفسها دولة ذات قومية أنجلو سكسونية ، وهذا يتناقض مع تركيبتها السكانية التي تتيح لها هذه الفرصة التي تتضح مع مرور الزمن وستزيد وضوحا في المستقبل ، وإلا فإن الفرصة قائمة سواء أدركتها أمريكا أم لم تدركها ، وستكون من نصيب من يراها بعينه وعقله فلا يكون أحد أسيرا للتاريخ ، فربما لو تمكن العالم من هذا الهدف السامي والكبير لأصبح التاريخ كله ليس أكثر من فلكلور.

الخاتمة

وأخيرا فمن سياق أحداث التاريخ من سقوط الإمبراطوريتين الكبيرتين الفارسية والرومانية على يد القوى الجديدة الناشئة (العرب المسلمين) و (القبائل الجرمانية) لوحظ أن فترات السلم والهدوء بين الجانبين أطول من فترات التوتر والحروب ، وذلك لسبب بسيط وبدهي وهو أنهم كانوا يسيرون لتحقيق أهدافهم في خطين متوازيين بمحاذاة البحر المتوسط من الشرق إلى الغرب ، فقد كان لهم فرصة القضاء على هاتين الإمبراطوريتين وتغيير العالم وإنهاء العالم القديم وقلب صفحته إلى الأبد دون أن يكون هناك تماس أو احتكاك بين الجانبين ، فقد كانا يقيمان العالم الحديث في صورته الجديدة ببدايات مختلفة ومتفاوتة ولكن متقاربة وبأفكار مختلفة غير تنافسية ، وذلك للظروف السائدة آنذاك من جغرافية واجتماعية واقتصادية وحضارية خاصة لدى التيار الشمالي الأوروبي ، إذ إنه عبارة عن قبائل بدائية بربرية أهدافها متواضعة بين الطمع والخوف منبهرة بالحضارة الرومانية وذلك لبدائيتها ، في حين أن التيار الجنوبي العرب المسلمين خرجوا بفكرة حضارية جديدة قائمة على الإصلاح ونشر العدل بين الناس وذلك بالدعوة إلى الله وإخلاص العبادة له وحده .

فقد تمكنت القبائل الجرمانية من القضاء على الإمبراطورية الرومانية الغربية والسيطرة على غرب أوروبا دون أن يدور في خلدها حتى التفكر في السيطرة على البحر ، ما عدى قبيلة الوندال التي وصلت إلى شمال إفريقيا هربا تحت ضغط قوي من قبائل أخرى ، وقد تمكنت من إقامت كيان هدد روما لاحقا ، أما العرب المسلمون فقد

تمكنوا من بناء عالما وكيانا كبيرا ممتد من حدود الصين شرقا إلى جبال البرانس غربا ، تمخض فيما بعد عن ما يعرف بالحضارة الإسلامية ، وخلال هذه الفترة لم يحدث احتكاكات حربية بين الجانبين ذات بال إلا فتح الأندلس ، وقد كانت معركة هذا الفتح بين العرب المسلمين وبين جزء من القبائل الجرمانية هم القوط الغربيون الذين هم بدورهم غزاه ، علما أن فتح الأندلس كان متزامنا مع فتوح العرب المسلمين في الهند وأواسط آسيا والصين ، ولم تحمل هذه الشعوب هذا العداء لتتوارثه الأجيال تجاه نفس الفاتحين ، وعليه فلم يكن هناك ما يستدعي هذا العداء الأوروبي تجاه المسلمين ، فلم يستأصل الفاتح العربي المسلم شعوب الأندلس ، وإنما أقام على أرضها حضارة عظيمة كانت منارة نور وإشعاع في أوروبا المظلمة ، ثم إن المد العربي الإسلامي قد توقف بعد معركة بلاط الشهداء التي لم تكن بدورها سببا للعداء بين الجانبين ، فأين العداء بين الجانبين من سنة سقوط روما إلي معركة بلاط الشهداء ومن ثم إلى بداية أولى الحملات الصليبية على المسلمين ؟ يجب إعادة التفكير في هذا ، ومن يكون في مصلحته هذا العداء ؟!!

ثم حصل أن ارتكبت أوروبا كارثة الحروب الصليبية على بلاد المسلمين فارتكبت أبشع الفظائع بحق المسلمين وبمقدساتهم دامت ما لا يقل عن القرنين من الزمان ، إذ إنها كانت السبب المباشر لهذا العداء على الأقل عند المسلمين ، ومع ذلك فهناك من سوف يقول أن بداية الصدام بين الجانبين كان من جهة العرب المسلمين فهم الذين دخلوا أوروبا وفتحوا جزءا مهما منها ، مع ملاحظة أن أوروبا لم تكن موحدة والقارة في الأصل ملك لسكانها الأصليين قبل الغزوات الجرمانية ، ومع

ذلك فلا يمكن أن يكون هذا هو السبب لأن أوروبا أيام الفتح الإسلامي كانت منشغلة باستيعاب المستوطنين الجدد الشعوب الأوروبية فيما بعد التي كانت في حالة عداء متبادل و مستمر للسيطرة على أكبر مساحة ممكنة من الأرض ما عدا محاولات الدولتين الميروفنجية والكارولنجية التوحيدية في وسط أوروبا ، ولم تصل إلى الجزيرة الأيبيرية ، وحتى بعد معركة بلاط الشهداء إذ آثر قادة الدولة الكارولنجية عدم مواصلة الحروب مع المسلمين لمحاولة إخراجهم من الأندلس ، وذلك لأن الأمر ليس مهما ولا يعنيهم مادام أن المد الإسلامي قد توقف عنهم إلا بعض المناوشات الصغيرة بين الجانبين ، ثم في الأندلس كان الفتح الإسلامي نعمة على هذه البلاد ، فقد أتاح الوجود الإسلامي فيها لشعوبها المختلفة فرصة إقامة حضارة إنسانية كبيرة قائمة على العدل والمساواة ، إذ لم يكن لأي من هذه الشعوب الرغبة في التخلص من هذا الكيان الحضاري المتسامح لمجرد العودة إلي المظالم والتناحر والتدهور الحضاري على الصعد الاجتماعية والاقتصادية .

ولولا حركة الاستعمار الأوروبي الحديث لربما تجاوزت الشعوب الإسلامية كارثة الحروب الصليبية وعدتها من الفترات الحالكة في التاريخ الإسلامي مثلها مثل الغزو المغولي المدمر الذي اجتاح العالم الإسلامي في نفس الفترة الصليبية ، ولكن يظهر والله أعلم أن الأوروبيين في عقيدتهم الاستئصال ما أمكن للشعوب التي تقع تحت سطوتهم ، وهذا ما حصل مع الشعوب الأصلية في القارات الجديدة والذي هو ربما امتداد لما كان قد حصل قبل ذلك أثناء الهجرات البربرية الجرمانية الأولى ، مما يعني أن الدول الأوروبية هي التي تنتج

العداوات الكبيرة مع الشعوب الأخرى ، وربا قائل يقول في هذا تحامل على الأوروبيين ، هذا ليس صحيحا لأنه لم يسرد هنا من أحداث التاريخ سوى العناوين الرئيسية ، وعليه فأنني أدعو إلى دراسة تاريخ العالم القديم آسيا وأوروبا وإفريقيا كوحدة تاريخية جغرافية ومن ثم ما يتبع ذلك في العالم الجديد حتى تتضح الفكرة ، فلم يكن تاريخ شعب أو حضارة بمنبئ عن تاريخ شعب أو حضارة أخرى ، وليس الهدف التجريح أو النيل من شعب من الشعوب أو حضارة من الحضارات بل كشف مواطن الخلل في العلاقات الإنسانية وأسباب العداء ومواجهتها ، وإبراز نقاط التلاقي والتفاهم بين البشر للدخول في مشروع الحضارة العالمية الكبرى التي بها يخرج العالم إلى آفاق أرحب وأوسع ، عالم واحد بحضارة واحدة فلم يعد أي من الشعوب ذات الحضارات العريقة ترضى بما دون الريادة ، وعليه فإن الحركات التحررية التي خاضتها الشعوب المستعمرة ضد الاستعمار إنما لتتذكر بأنها موجودة ، وإنها لا تملك إلا أن تكون في المقدمة في البناء الحضاري العالمي ، وهذا ما العالم بحضاراته المختلفة سائر إليه حتما ، وأن فرصة توحد العالم حضاريا قاب قوسين أو أدنى ، وأنها فرصة سانحة لمن أستطاع التقاطها لتكون له ريادة دعوة العالم لهذه الوحدة الحضارية ، وذلك بالقدوة الحسنة وطرح المشاريع التعاونية بشفافية وحسن نية وبنظرة تتعدى المحلية لصالح الجميع وبرضا الجميع ، فلم يعد العالم يحتمل تفرد فئة بثرواته وخيراته دون الآخرين .